لائحة القومي العربي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 92

01 آذار 2024

غزة وقضية فلسطين: أين مشروعنا؟

نحو مشروع للنّهوض القومي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 92

01 آذار 2024

محتويات العدد 92 من مجلة طلقة تنوير:

- قراءة في أزمة العمل الوطني الفلسطيني / إبراهيم علوش.....02
- غزة: المعركة التي رسمت معالم المستقبل / واصل البدور.....15
- طاقات الغضب من العجز أمام غزة تنذر بكارثة / كريمة الروبي.....17
- قوانين جديدة للصراع مع الكيان الصهيوني / نسرين عصام الصغير.....18
- المشروع السياسي اليهودي قبل الاستعمار الأوروبي الحديث / إبراهيم حرشاوي.....21
- منبر حر: فلسطين هي القاسم المشترك الأعظم / فتحي الشقاقي (1994).....25
- مستقبل منظمة التحرير الفلسطينية / ناجي علوش (1994).....29
- الصفحة الثقافية: القضية المشوهة في فيلم "لا بدّ أنها الجنة" / طالب جميل.....38
- قصيدة العدد: البكاء بين يدي صنعاء / عبد العزيز المقالح.....41
- رسم العدد: في كل الفصول مقاومة.....43

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار2024

قراءة في أزمة العمل الوطني الفلسطيني: المسببات والنتائج

إبراهيم علوش

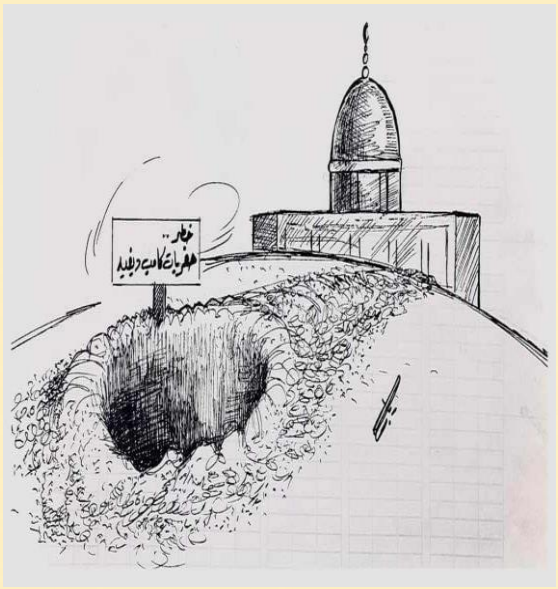

توطئة: على الرغم من كثرة الحديث عن أزمة وجودية تنتاب الكيان الصهيوني، وعن مظاهر تلك الأزمة، ومنها تآكل قدرته الردعية وقدرته على ممارسة الغزو والاحتلال العسكري خارج "حدوده" الحالية، وانقساماته المجتمعية والحزبية التي تؤثر في تماسكه وتولد حالةً من عدم الاستقرار الشديد في منظومته السياسية، وضعف الروح القتالية في جيشه، ولا سيما مكونه البري، واختلال التوازن السكاني بينه وبين الشعب الفلسطيني، ناهيك عن محيطه العربي، وافتقاده للقيادات التاريخية من العيار الذي أسس كيان الاحتلال وقاده في عقوده الأولى، وتوازن الردع الذي نشأ بينه وبين محور المقاومة، ولا سيما بعد تجربة العدو الصهيوني المرة في لبنان، وتزعزع صورته كجيش / دولة لا يقهر، وبداية انكشافه إعلامياً في الغرب كـ"واحة للديموقراطية وحقوق الإنسان"، وغيرها من المظاهر، فإن الكيان الصهيوني تمكن من تحقيق اختراقات حقيقية على الصعيدين العربي والفلسطيني كان من مظاهرها ما يلي:

أ – اتفاقية كامب ديفيد عام 1978، ومن ثم معاهدة السلام المصرية-"الإسرائيلية" عام 1979، الأمر الذي أخرج مصر من حلبة الصراع العربي- الصهيوني، وكان من نتائج ذلك المباشرة العدوان على لبنان عام 1982.

ب – اتفاقية أوسلو عام 1993، ومن ثم معاهدة وادي عربة عام 1994، ومجموعة الاختراقات التطبيعية التي حدثت في التسعينيات في عددٍ من الدول العربية، من قطر إلى موريتانيا والمغرب، وفي دول صديقة كانت تقاطع الكيان الصهيوني تضامناً معنا. وفي تلك المرحلة استشرس تيار "السلام" والتطبيع، عربياً وفلسطينياً، وانتقل إلى حالة هجوم على صعيد النخب الإعلامية والثقافية.

ج – الاستثمار في أزمات المجتمع العربي المركبة من أجل افتعال الانقسامات الداخلية أو مفاقمتها، ودعم الحركات الانفصالية، من الأكراد في شمال العراق إلى الزنج في جنوب السودان، وصولاً إلى الاستثمار في المسألة الأمازيغية لتفكيك المغرب العربي. كذلك، استثمر الكيان الصهيوني في التطرف الديني والمسألة الطائفية، من حزب الكتائب و"القوات اللبنانية" (ما نتج عنه مجازر صبرا وشاتيلا برعاية مشتركة)، إلى دعمه الموثق جيداً للميليشيات المسلحة والتكفيريين جنوبي سورية.

وما برح الكيان الصهيوني يستثمر، بنجاحٍ في كثيرٍ من الأحيان، في التناقضات العرقية والطائفية والجهوية في الوطن العربي، وحتى في التناقضات بين الأنظمة العربية، وليس كشفه مؤخراً للاتصالات السرية التي أجراها الملك حسين مع العدو الصهيوني قبيل حرب 1973، أو كشفه قبل سنواتٍ عن تعاون الملك الحسن الثاني في المغرب مع الموساد لزرع

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

أجهزة تنصت في لقاء القمة العربية في الدار البيضاء عام 1965، والتي قدمت فيها تقارير عن القدرات العسكرية لكل دولة عربية بالتفصيل فيما كان يفترض أنه استعدادٌ للحرب مع الكيان الصهيوني، إلا مزيداً من الاستثمار في هذا السياق.

د - مجموعة الاتفاقيات "الإبراهيمية" التي وقعها الكيان الصهيوني مع الإمارات والبحرين، ثم مع المغرب، عام 2020، ثم مع السودان عام 2021، والتي أسفرت عن علاقات تجارية واستثمارية وسياحية واسعة النطاق مع العدو الصهيوني، ولا سيما الإمارات والمغرب، على التوالي، بما يتجاوز حتى سقف "المبادرة العربية" لعام 2002، منخفضة السقف أصلاً، ناهيك عما يسمى "قرارات الشرعية الدولية".

هـ - نشوء شريحة فلسطينية، في فلسطين المحتلة والشتات الفلسطيني، ذات امتداد شعبي ونخبوي، تعتقد جادةً أن المشروع الوطني الفلسطيني هو "تأسيس دويلة في حدود الـ67" على أرضية التعايش مع الكيان الصهيوني والتفاهم معه، تحت وصاية القرار الدولي وبرعايته، وبرمجة العقل السياسي لتلك الشريحة على التوهم أن كل خطوة في ذلك الاتجاه، مثل التنسيق الأمني مع الاحتلال ضد المقاومة، هي نوعٌ من "النضال" الذي لا يستوعبه الآخرون لأنهم "عاطفيون" و"غير عقلانيين"! وذلك على الرغم من عقم ثلاثة عقود من تجربة أوسلو، وعلى الرغم مما أثبتته تجربة لبنان، وكل الشعوب التي تعرضت لاحتلال من الجزائر إلى فيتنام، من أن المقاومة المستندة إلى مشروع تحرير هي الخيار العقلاني والمتوازن الوحيد تاريخياً.

إن مثل تلك الشريحة التي تغذيها المؤسسات الدولية بالدعم المالي والسياسي (المقيدين والمشروطين بـ"حسن السلوك" في علاقتها مع الاحتلال)، والتي تتيح لها البيئة الرسمية العربية والدولية حيزاً أكبر لممارسة العمل السياسي فلسطينياً أو باسم فلسطين (تحت عنوان "الممثل الشرعي الوحيد")، والتي تتمسك حتى قوى وشخصيات مقاوِمة بالعلاقة معها (حرصاً على "الوحدة الوطنية الفلسطينية")، باتت تمثل في آنٍ واحدٍ:

أ – احتياطياً استراتيجياً وصمام أمان للاحتلال الصهيوني.

ب – العامل الرئيسي في إحداث ما يسمى "الانقسام الفلسطيني".

وإن ذلك هو الانقسام الحقيقي، الانقسام بين نهج التسوية مع العدو الصهيوني من جهة، ونهج المقاومة والتحرير من جهةٍ أخرى، لا انقسام السلطة الفلسطينية ذاتها ما بين الضفة الغربية وغزة، لأن منطق العمل تحت سقف السلطة يبقى ذاته سواءٌ قامت عليه حركة فتح أو حماس أو فصائل اليسار الفلسطيني. وسيأتي المزيد بشأن هذه النقطة بعد قليل.

لكن الأساس في تلك الشريحة هو استنادها إلى منهج وعقلية تسووية، إذ إن برنامج التسوية، بغض النظر عن صيغه وألوانه في كل مرحلة سياسية، وبغض النطر عن أسماء الشخصيات أو القوى التي عملت على تمريره، بات كابحاً داخلياً فلسطينياً على مستوى الوعي السياسي، لا على مستوى الممارسة فحسب، يحبط أي محاولة جادة لتعبئة الإرادة الجمعية، فلسطينياً وعربياً، من أجل تحرير فلسطين.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار2024

مقولة "إسرائيل أمر واقع"

سبقت الإشارة إلى أن العدو الصهيوني تمكن من إحداث اختراقات في الجسد العربي من خلال علاقاته التطبيعية مع بعض الأنظمة العربية وبعض الجهات الفلسطينية، وبأنه يعمل جاهداً على مفاقمة الانقسامات والحركات الانفصالية في البلدان العربية (وثيقة كيفونيم أو كارينجا كنموذجين).

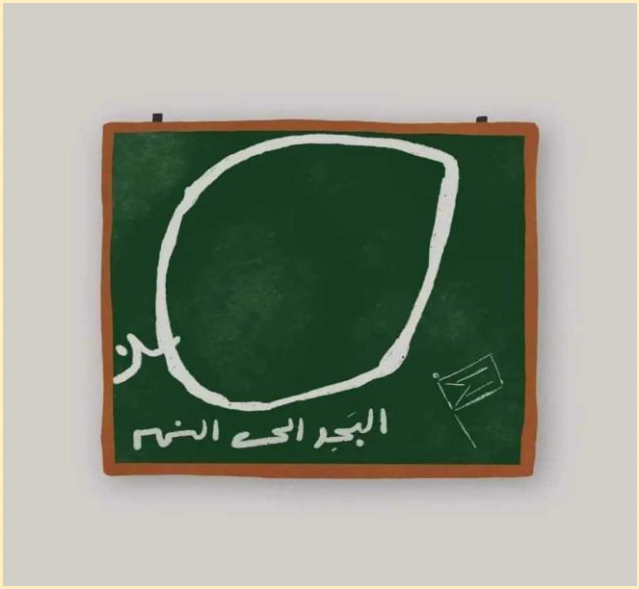

وتصب استراتيجية الاختراق والتفكيك المزدوجة تلك في هدف شرذمة الهوية والإرادة العربيتين في المحصلة، لا الجغرافيا فحسب، لأن ذلك هو ما يحقق الأمن الاستراتيجي للكيان الصهيوني على المدى البعيد، وما برح العدو ماضياً في تنفيذ هذا المشروع على قدمٍ وساق، بالتعاون مع الغرب طبعاً.

لكن العدو الصهيوني يعمل أيضاً على جعل الهزيمة عقيدةً عربية وفلسطينية عبر مقولة "إسرائيل أمر واقع".

إن مقولة "إسرائيل أمر واقع" لا تختلف منطقياً عن القول إن وباءً ما أو أيَ احتلال في أي مكان وزمان هو أمرٌ واقع. لكن شتان ما بين القول إن شيئاً ما أمرٌ واقع، وبين القول إنه "باقٍ إلى الأبد"، أي شتان ما بين قراءة ميزان القوى كما هو، وقراءة العوامل التي يمكن أن تقلبه. وشتان ما بين الاقتصار على قراءة الواقع الراهن فحسب، وقراءة قوانين التاريخ، وشتان ما بين رؤية ما هو قائم، والإعداد لما هو قادم.

إن التعامل مع الاحتلال كأمر واقع لا فكاك منه ربما يجعل "التعامل البراغماتي" معه، والسعي لتحسين شروط العلاقة مع المحتل، يبدوان كأنهما أمرٌ منطقي، لكن مثل ذلك "المنطق" بالذات هو الذي يبقي الاحتلال أمراً واقعاً مقيماً ما بقي ذلك "المنطق" سائداً، أي أنه غير منطقي وغير عقلاني من منظور جمعي على المدى البعيد.

ولا فكاك من أزمة العمل الوطني التي تعيشها الساحة الفلسطينية اليوم من دون تخليص الإرادة الجمعية من قيود العقلية التسووية التي تكبلها وتعيق انطلاقتها، ومن مقولة "إسرائيل أمر واقع".

وكان لا بد من التخلص من هذه المقولة نهائياً، وخصوصاً بعد عملية "طوفان الأقصى"، إذ شكلت تلك العملية فجيعةً مؤلمةً للعدو الصهيوني وداعميه لما يستيقظوا من وجعها بعد، كما شكلت مفاجأة مدهشة لكل مواطن عربي شريف، فقدحت شعلة الأمل في إمكانية تحرير فلسطين، ببساطة، لأنها أظهرت:

أ – أن قهر العدو وإغراق منظوماته العسكرية والأمنية بالطوفان أسهل بكثير مما توهم كثيرون على مدى عقود.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

ب – أن غزة الصغيرة المحاصرة، والمخنوقة خنقاً منذ عام 2007، اجترحت بإمكانات ضئيلة معجزة عسكرية إبداعياً، فما بالك لو تحررت طاقات 10% فحسب من الأمة العربية التي يبلغ تعدادها نحو 500 مليون نسمة؟!

ج – أن الإرادة المقاوِمة أثبتت أن بالإمكان، لا تسديد فاتورة الجرائم الصهيونية في السنوات الأخيرة دفعةً واحدةً فحسب، بل أيضاً تقويض منظومة الأمن الصهيونية في مستعمرات غلاف غزة في رمشة عين، وبالتالي بالإمكان تحرير فلسطين كاملة.

قبل عملية "طوفان الأقصى"، ربما قال البعض إن ما سلف كلامٌ إنشائيٌ محض. أما بعدها، فلا بد من أن تنعقد حتماً ألسنة المطبعين والتسوويين الذين بنوا جل خطابهم السياسي على فرضية استحالة هزيمة الكيان الصهيوني عسكرياً على أرض فلسطين التاريخية، ولا سيما الأرض المحتلة عام 1948.

وعلى الرغم من تهافت مثل ذلك الخطاب منطقياً، لأن الهزيمة الساحقة للقوى العسكرية الأساسية للمحتل في أي ميدان تعني تحرير فلسطين، كما عنت موقعة حطين تحرير القدس، فإن ما كرس فكرة استحالة هزيمة الكيان الصهيوني على "أرضه"، أي أرضنا العربية المحتلة، هو الحصانة الوهمية التي منحها التبني الدولي، ومن ثم الرسمي العربي المطبع، ومن ثم الرسمي الفلسطيني، لمشروعية ذلك الكيان و"حقه في الوجود"، وليس أي قوة ذاتية خارقة من أي نوع.

لا أزعم طبعاً أن عملية طوفان الأقصى هزمت القوى العسكرية الأساسية للكيان الصهيوني، بل أنها أظهرت أن هزيمتها أسهل مما روج كثيرون، لكنّ إظهار إمكانية هزيمة الكيان الصهيوني ومحوه من الوجود لا يكفي بذاته كي تتحقق تلك الإمكانية، إذ لا بد من اقترانها ببناء قوى مؤمنة بضرورة محوه من الوجود من جهة، وبوجود حواضن أو عمق استراتيجي لتلك القوى، من جهةٍ أخرى، تمدها بالزخم وعناصر القوة.

لكنْ، على الرغم من درس "طوفان الأقصى" الكبير، فإن هناك من يصر في الساحة الفلسطينية على ترداد مقولة "الدويلة الفلسطينية".

هل هناك أزمة عمل وطني فلسطيني؟

لكن دعونا نتساءل أولاً: لمَ الحديث عن أزمة عمل وطني فلسطيني؟ وما هي مظاهرها وتجلياتها؟

تتجلى أزمة العمل الوطني الفلسطيني في أن الشعب العربي الفلسطيني يقاوم الغزوة الصهيونية منذ بدأت تتصاعد في نهاية القرن التاسع عشر، وفي أن مقاومته لطالما أعاقت تلك الغزوة وأخرت توسعها، بالرغم من كل الدعم الذي تلقته من الغرب وكل التواطؤ والخيانات عربياً وفلسطينياً، وفي أنه ما برح يبذل أنهاراً من الدماء والتضحيات على دروب المقاومة، وعلى الرغم من ذلك، فإن الكيان الصهيوني ما برح جاثماً على صدورنا، ولما نتمكنْ بعد من تحرير فلسطين، فإلى متى؟

إن هذا سؤال كثيراً ما يطرح على الرغم من أننا نخوض حرب أجيال، وسبق أن احتل الفرنجة فلسطين نحو قرنين، واحتلها الرومان والبيزنطيون مع بقية بلاد الشام أكثر من ألف عام حتى حررها الفتح العربي الإسلامي، وقبل هؤلاء وأولئك وبعدهم بقيت فلسطين عربية، فنحن ما برحنا زمنياً، بناءً على هذه المقاربة التاريخية، في النصف الأول من المباراة مع الاحتلال الصهيوني.

لا بد إذاً من أن نثبت، أولاً، أن التحرير مشروعٌ تاريخيٌ، وأن من يقومون عليه يحتاجون إلى نفسٍ طويلٍ. لذلك، فإن تناوله بمقاييس حياة الأفراد القصيرة يعيدنا إلى "المنطق البراغماتي" ذاته الذي يقود إلى مزالق نهج التسوية مع العدو الصهيوني، لأن منطق التسوية فردي ضيق، أما منطق المقاومة والتحرير فجمعي وتاريخي.

إن تناول الصراع العربي-الصهيوني بمنطق غير تاريخي، وبعيداً عن تناقضات الجغرافيا السياسية التي حملت بريطانيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر على وضع المخططات التنفيذية لتأسيس الكيان الصهيوني، أي أن تناول الصراع بوعي قاصر غير مطابق لحيثياته، سوف ينتج نتائج استسلامية بالضرورة، لأن "الحل السريع" بالنسبة لفردٍ محدودٍ زمانياً ومكانياً هو الحل التسووي، الحل الذي يحكمه، بكل ضيق أفق، ميزان القوى هنا والآن فحسب. أما الوعي العام، الوعي العابر للأفراد واللحظة الراهنة، فيفرض مشروع المقاومة والتحرير فرضاً منطقياً عقلانياً.

لا بد من أن نثبت، ثانياً، أن التاريخ لا يعمل من تلقاء ذاته، أي بمعزلٍ عن إرادة البشر، ومن أن الحديث عن التاريخ، وحتمية زوال الاحتلال تاريخياً، لا يعفينا مطلقاً، بالتالي، من النظر في العوامل والأسباب التي تمد الكيان الصهيوني بأسباب البقاء هنا والآن، ومن النظر في إمكانية تقويضها.

ويمكن أن نلخص تلك الأسباب والعوامل فيما يلي:

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

أ – اختلال ميزان القوى جوهرياً بين أمة عربية مفرغة من عوامل القوة، بفعل تجويف قرونٍ من الاحتلال العثماني، وبين أوروبا النهضوية الصاعدة، الأمر الذي أعطى المشروع الصهيوني مساحةً لتأسيس وجوده في ظروف فراغ القوة عربياً والتواطؤ عثمانياً.

ب – بدء الهجرات اليهودية والاستيطان الصهيوني والاستحواذ على الأراضي الفلسطينية وتشييد المستعمرات والبنية التحتية لكيان الاحتلال في ظل حكم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الأمر الذي أعطى الحركة الصهيونية أفضليةً في وضع مواطئ قدم في فلسطين قبل أن يتمكن العرب من استجماع عناصر قوتهم لمواجهتها (وجاهزون لمناظرة هذه النقطة بالأرقام والتواريخ لمن يرغب).

ج – تفكيك الوطن العربي إلى دويلات، بعد زوال الاحتلال العثماني ومجيء الاحتلال الأوروبي، وبالتالي تفكيك الإرادة الجمعية العربية إلى شذرات، ورزوح الأقطار العربية "المستقلة" التي خاضت حرب الـ 48 تحت أنظمة تابعة للمستعمر البريطاني والفرنسي، غلوب باشا نموذجاً، ناهيك عن عمالة قيادة الثورة العربية الكبرى للمستعمر البريطاني، الأمير فيصل بن الحسين الذي وقع على فلسطين لليهود عام 1919 نموذجاً.

د - تفكك الحركة القومية العربية بعد التخلص من بعض الأنظمة التي كرسها الاحتلال الأوروبي، وانقسامها إلى أحزابٍ وفصائلَ على خطوطٍ قُطرية بين مصر وسورية والعراق، على النقيض مما تمليه عقيدتها القومية العربية، الأمر الذي شكل مقتلاً لتحشيد عناصر القوة العربية في مواجهة الهيمنة الغربية والحركة الصهيونية.

هـ - توهان بوصلة بعض القيادات الفلسطينية، وتواطؤ بعضها الآخر مع الاحتلال البريطاني مباشرةً، حتى نشأت إبان ثورة الـ 1936 في فلسطين قوى تسمى "فصائل السلام" تستند إلى عمق اجتماعي حاربت الثورة بالتعاون مع الاحتلال البريطاني. ويمكن التوسع في هذا الموضوع في كتابي ناجي علوش "الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية 1882-1948"، و"المقاومة العربية في فلسطين 1917-1948"، واللذين يمكن تحميلهما إلكترونياً من موقع "الصوت العربي الحر".

توهان البوصلة السياسية هو منشأ أزمة العمل الوطني الفلسطيني

لا يعنينا هنا حقيقةً دور التواطؤ والخيانات والانقسامات المعروفة، بمقدار ما يعنينا توهان البوصلة، لأن سوء التقدير استراتيجياً لدى قيادات المقاومة، بالرغم من حسن النية، لا يقل سوءاً، في مآله الموضوعي، عما يفعله العدو.

وكما كتبت في مستهل الفصل العاشر من كتاب "مشروعنا: نحو حركة جديدة للنهوض القومي" (2009):

"قضى الحاج أمين الحسيني نحو عقدين وهو يجرب تحييد بريطانيا كي يركز على مقارعة الحركة الصهيونية، وجاء ذلك بعد تخلي القيادات الفلسطينية عن مشروع عروبة فلسطين ووحدتها مع بقية الأمة العربية لمصلحة مشروع "أكثر واقعية" تحت واقع الانتداب هو مشروع الدولة الديموقراطية الواحدة في فلسطين المتكونة من العرب واليهود، وهو ما اعتقد بعض

الفلسطينيين وقتها أنه أقرب لتفهم وإدراك ذلك الثقب الأسود المسمى "رأياً عاماً غربياً" الذي امتص ومضغ وبصق مصداقية أكثر من شخصية وقوة سياسية فلسطينية! حتى عاد واكتشف الحاج أمين استحالة التفاهم مع بريطانيا عشية ثورة الـ36، مع العلم أنه كان يمثل وقتها الجهة السياسية الأكثر إخلاصاً والتزاماً بالقضية الفلسطينية، مقارنةً بمعسكر آل النشاشيبي والأحزاب العربية الأخرى."

حاول الحاج أمين الحسيني إذاً تحييد بريطانيا للنيل من الحركة الصهيونية، مواجهاً قوىً فلسطينية تواطأت مع الاثنتين، فاكتشف بعد أعوامٍ طوالٍ أنه على ضلالة كبرى في محاولة الفصل بين الصهاينة والاحتلال البريطاني، فانخرط في قيادة ثورة الـ 36، ثم في ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد البريطانيين في العراق عام 1941، وكان مرشدها الروحي فعلياً، مكبداً البريطانيين مئات القتلى، فلا نخوّنه أبداً هنا. لكنّ رؤياه السياسية كانت تعاني من خلل استراتيجي منذ البداية، لأنه لم يدرك طبيعة الصراع إلا متأخراً، وطبيعة العلاقة بين الإمبريالية والصهيونية، معتقداً أنه يمكن أن يسايرَ البريطانيين ليكسبهم ضد الحركة الصهيونية، في وقتٍ لم تكن الحركة الصهيونية قد ثبتت أقدامها على الأرض جيداً بعد، فضاع وقتٌ ثمينٌ في لحظاتٍ تاريخيةٍ مفصلية، وكان يفترض أن يبدأ ضرب اليهود فوراً قبل أن يتمكنوا من الاستقرار.

كان النهج المنطقي البديل هو نهج محمد عز الدين بن عبد القادر القسام، من جبلة في اللاذقية، سورية، التي وفد أبوه إليها من العراق. وكان صوفياً، لا إخوانياً، وكان عروبياً انتسب إلى حزب الاستقلال في حيفا عام 1932 ذي المنهج القومي العربي، فلا يجوز أن نقبل بمصادرة اسمه من طرف جماعة الإخوان، كما أنه كان رمزاً وطنياً سورياً وعراقياً وفلسطينياً وقومياً عربياً في آنٍ واحد. وقد سار الحاج أمين الحسيني في النهاية على نهج عز الدين القسام. لكنّ القسام الذي اتخذ من جنين مقراً واستشهد فيها بطلاً مغواراً في يعبد عام 1935، والذي كان ذا باعٍ طويلٍ في مقارعة الاحتلالات الأوروبية في الوطن العربي، وذا الفضل الأكبر في تفجير ثورة الـ 36 في فلسطين، لم يترك خلفه تنظيماً أو نهجاً سياسياً يقارع نهج التسوية في الساحة الفلسطينية بعد مماته كما قارعه بممارسة العمل المسلح في حياته.

هنا يكمن جوهر المشكلة: شهداء ونضالات وتضحيات من دون حساب، لكن نظرية العمل المقاوم ظلت تفتقد إلى بوصلة تحرير على مستوى الساحة الفلسطينية ككل، ولا نتحدث عن أفراد أو فصائل بعينها كان التحرير دافعهم الأول طبعاً.

لقد ترك القسام مثالاً مضيئاً يحتذى على مدى صراع الأجيال، لكنه لم يخلف نظريةً تحرير مناهضة للتسوية مع العدو الصهيوني في الساحة الفلسطينية فكرياً، ومن هنا تسرب الخلل. افتقد المقاتلون للنظرية-البوصلة، وافتقد المنظرون للروح القتالية، فتهتكوا سياسياً، وصار القتال من أجل الانخراط في مائدة التسوية مع العدو الصهيوني "مشروعاً وطنياً".

اختلطت الأوراق إذاً، ولم يعد كل من يقاتل صاحب مشروع تحرير، ولا كل صاحب مشروع تحرير مقاتل، ولا كل صاحب مشروع تسوية مع العدو الصهيوني عميل. إنها مجزرة سياسية عنوانها تخبط اتجاه البوصلة، في حين أن عروبة كل أرض فلسطين من النهر إلى البحر يفترض أن تكون البوصلة، لكنّ "المنطق البراغماتي" غلب على البعض فهانوا، من منظورٍ جمعيٍ وتاريخيٍ.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

لماذا احتلت فلسطين؟

ولو شئنا أن نضع أصبعنا على مصدر المشكلة لقلنا إنها مزيجٌ من أمرين:

أ – التفريط الناتج عن نهج التسوية مع العدو الصهيوني، وهذا هو الجانب الواضح.

ب – المقاومة الناتجة عن ردة فعل، رداً على تغول اليمين الصهيوني الفاشي في الضفة الغربية مثلاً، من دون بوصلة تحرير، أي من دون برنامج أو فكر مقاوِم يستند إلى فهمٍ تاريخي لطبيعة الصراع وجغرافيته السياسية، مما يملي ضرورة تحرير فلسطين التاريخية من النهر إلى البحر.

للأسف، كثيراً ما يمثل نقص الوعي التاريخي والجغرافي السياسي نقطة الضعف الجوهرية في فهم القضية الفلسطينية. ومن دون مثل هذا الوعي فإن أي برنامج سياسي يتعلق بفلسطين سيكون قاصراً. لقد وضعت البرامج التنفيذية لتأسيس الكيان الصهيوني في النصف الأول من القرن التاسع عشر بعد تمدد إبراهيم باشا، ابن محمد علي باشا حاكم مصر آنذاك وباني نهضتها الحديثة، في بلاد الشام والجزيرة العربية.

وكما كتبت في مقالة بعنوان "وثيقة كامبل بانرمان: حقيقة أم خيال؟"، في الميادين نت في 2023/9/15: "كان رائد تلك السياسة وزير الخارجية البريطاني آنذاك هنري جون تمبل، الشهير باسم بالمرستون، والذي أصبح لاحقاً رئيساً للوزراء. وفي رسالة إلى سفيره في إسطنبول، عام 1840، وجه بالمرستون السفير لإقناع الباب العالي بأن "عودة الشعب اليهودي إلى فلسطين بدعوة من السلطان وتحت حمايته تشكل سداً في وجه مخططات شريرة يعدها محمد علي أو من يخلفه". وهذه مسألة سجلٍ علني. والمصدر هو: د. عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص. 24، الطبعة التاسعة. ويذكر أن د. الكيالي وثق الرسالة بالرقم المتسلسل من أرشيف مكتبة المتحف البريطاني."

"إن هذا دليل ملموس آخر على التوجه البريطاني لزرع كيان غريب في فلسطين لمنع قيام دولة عربية واحدة (بدلالة تعبير "أو من يخلفه"). وقد تبلور هذا التوجه على خلفية إلقاء الجيوش الأوروبية (ومنها روسيا القيصرية) كل ثقلها إلى جانب العثمانيين ضد إبراهيم محمد علي باشا وقواته العربية (لا، لم تكن ألبانية أو مملوكية، بدلالة التجنيد الإجباري في مصر

والسودان وبلاد الشام)."

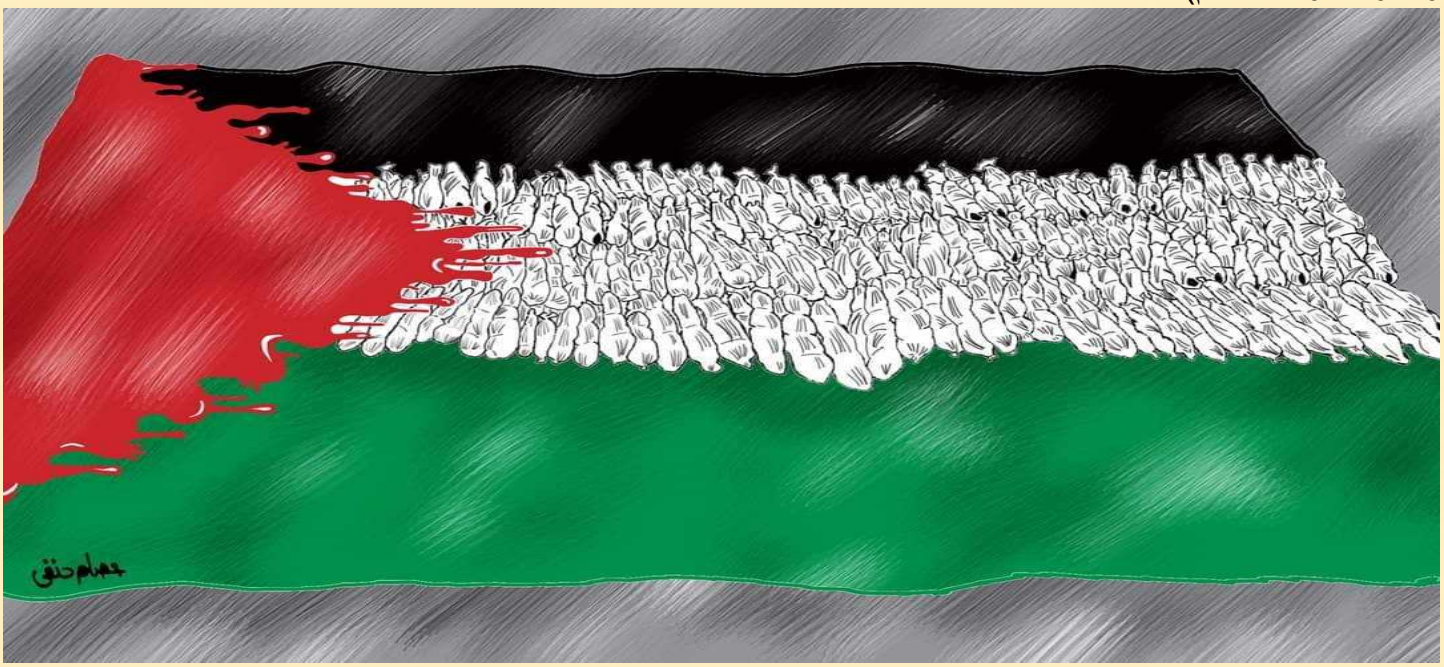

ما الخلل؟ وما العمل؟

الخلاصة أن فلسطين احتلت لمنع قيام الدولة العربية الموحدة، فاحتلالها موجه بالأساس ضد العرب، لا ضد الفلسطينيين، وبالتالي، إن تحريرها واجب كل العرب، لأن فلسطين عربية أولاً، ولأن احتلالها وتأسيس حاجز بشري غريب فيها كان موجهاً منذ البداية ضد وحدة الأمة العربية. ولا يمنع ذلك أن يكون لفلسطين أبعاد إسلامية وأممية أيضاً، لكنها قضية الأمة العربية أولاً، لا قضية الفلسطينيين وحدهم، وهي قضية استعمار استيطاني إحلالي ثانياً، لا معنى للحديث عن تحرير فلسطين من دون استئصاله.

لا بد لأي برنامج يتعلق بفلسطين إذاً أن ينطلق مما يلي:

أ – أن فلسطين بؤرة التناقض بين الأمة العربية من جهة والحركة الصهيونية والإمبريالية العالمية من جهةٍ أخرى، كما أن الحركة الصهيونية ذات طبيعة عالمية، لا تقتصر على احتلال فلسطين، وهي مندمجة عضوياً بالإمبريالية في بلدانها، وليست مجرد أداة لها في فلسطين.

ب – أن التناقض مع الاستعمار الاستيطاني الإحلالي في فلسطين ذو طبيعة تناحرية ووجودية، إذ إن "المشروع الصهيوني هو النقيض الاستراتيجي للأمة العربية، فإما الأمة العربية الموحدة وإما الكيان الصهيوني المتمدد"، كما صاغها الدكتور هشام غصيب من الأردن في مقالات ومحاضرات متعددة.

ج – إن إضعاف الوعي القومي عربياً يعني التخلي عن فلسطين، وإضعافه فلسطينياً يعني الاستعداد للتخلي عن عروبة فلسطين من النهر إلى البحر والدخول في مشاريع تسووية. لذلك، يمثل الشعب العربي الاحتياطي الاستراتيجي لمشروع تحرير فلسطين، ويمثل التمسك بعروبة أرض فلسطين صمام أمان في وجه مشاريع التسوية.

إن وضع مشروع التحرير على هذه الأسس يعني بالضرورة:

أ – أنه يحتاج إلى حاضنة قومية، مع رأس حربة فلسطيني.

ب – أن ذلك الرأس يجب أن يكون صلباً لا يلين في الموقف من أي شكل من أشكال التعايش مع العدو الصهيوني.

كان الخلل في مرحلة المد القومي في الخمسينيات أن الفلسطينيين انتظروا الجيوش العربية كي تحرر فلسطين، لكن ميزان القوى التقليدي لم يكن يسمح بعد بخوض معركة مباشرة مع العدو الصهيوني المدعوم من الغرب بأحدث الأسلحة.

وكان الخلل بعد هزيمة الـ 67 هو الجنوح بعيداً عن العروبة باسم الكيانية الفلسطينية، حتى وصلنا إلى مقولات مثل "الممثل الشرعي الوحيد"، في قمة الرباط عام 1974، و"السلطة المستقلة"، في برنامج النقاط العشر الذي أقره المجلس الوطني الفلسطيني عام 1974 أيضاً.

لكن "الممثل الشرعي الوحيد" تعني إعطاء رخصة للنظام الرسمي العربي للتخلي عن القضية الفلسطينية، وللمضي قدماً في اتفاقات صلح منفردة، كما جرى في كامب ديفيد، وهذا يعني شطب الحاضنة القومية.

كما أن مشروع "الدويلة" و"السلطة المستقلة" يعني "البحث عن كيان"، الأمر الذي يتطلب إيجاد صيغة تفاهم واعتراف ممن يمكن أن يمنحوه، دولياً وصهيونياً. وإن الباقي، كما يقال، مجرد تاريخ.

هنا أصبح القتال موجهاً لنيل الاعتراف الدولي والصهيوني، ومن أجل فرض قيادة م. ت. ف طرفاً على طاولة المفاوضات، بغرض تأسيس كيان ما يمثل الفلسطينيين، ولم يعد الهدف تحرير الأرض.

للأسف، أصبحت كل وثائق "الوحدة الوطنية الفلسطينية" ملطخةً بمثل هذا التوجه، "وثيقة الأسرى"/ الوفاق الوطني نموذجاً، وظلت تصريحات بعض ممثلي فصائل المقاومة تنطلق من مقولة "الدويلة" حتى بعد عملية "طوفان الأقصى".

كذلك أصبحت معظم برامج الفصائل في الساحة الفلسطينية تنطلق من مقولة "الدولة الفلسطينية" في حدود الـ67، من فتح إلى حماس (التي كرسته رسمياً في ميثاقها عام 2017) إلى معظم اليسار. إن العلامة الفارقة هنا هي حركة الجهاد

الإسلامي طبعاً، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعد أن أجرت مراجعاتها مؤخراً، والجبهة الشعبية-القيادة العامة، وفصائل التحالف في دمشق.

لكنّ الجبهتين الشعبيتين ما برحتا محكومتين بروابط مع السلطة الفلسطينية، وكذلك ما برحت حركة الجهاد الإسلامي محكومةً بروابط مع حماس، أي أن المحصلة تصب موضوعياً في مشروع الدويلة، سواء قامت عليه غزة أم رام الله.

إن تلك هي أزمة العمل الوطني الفلسطيني: لا يوجد عملياً مشروع تحرير في الميدان. توجد مقاومة بطولية نعم، كثيرٌ منها ذو طابعٍ عفوي، أما الذي يفرض نفسه في الميدان سياسياً فهو مشروع التسوية مع العدو الصهيوني تحت عناوين ويافطات مختلفة. وإذا كان العدو الصهيوني يسعى إلى تخفيض سقوف تلك المشاريع، حتى أنه يعد سقف سلطة التنسيق الأمني ذاتها مرتفعاً، فإن الخلاف يصبح على شروط الصفقة، لا على مبدئها.

إن المطلوب اليوم في الساحة الفلسطينية، باختصار، هو ما يلي:

أ – إعادة الاعتبار إلى مشروع التحرير فلسطينياً، وتعويمه عبر تيار يتبناه رسمياً وتنضوي فيه كل الفصائل والقوى والجمعيات والشخصيات التي توافق على برنامجه وتلتزم بقراراته.

ب – تأسيس جبهة شعبية عربية مساندة تكون مناهضة التطبيع مع العدو الصهيوني على رأس جدول أعمالها، ودعم المقاومة طبعاً، وإعادة الاعتبار للقضية الفلسطينية كقضية العرب المركزية، تنضوي فيها أيضاً كل الأحزاب والقوى والجمعيات والشخصيات التي توافق على برنامجها وتلتزم بقراراتها.

ومن البديهي أننا لا نحتاج إلى صياغة برنامج عمل جديد هنا، إذ إن لدينا الميثاق الوطني الفلسطيني غير المعدل لعام 1968، وثيقة الإجماع الوطني الفلسطيني الوحيدة في التاريخ المعاصر للشعب الفلسطيني، ولدينا الميثاق القومي لعام 1964 من قبله.

وذلك هو الطريق، برأيي المتواضع، كي نتمكن من تحويل النضالات والتضحيات إلى إنجازات وخطوات تقربنا رويداً رويداً من هدف التحرير.

بشأن بيان المكتب الإعلامي لحركة حماس المعنون "هذه روايتنا... لماذا طوفان الأقصى؟"*

تعاني الساحة الفلسطينية من غياب لمشروع وطني فلسطيني إذاً على الرغم من اشتداد وتيرة المقاومة ذاتها. يتجلى ذلك بمظاهر شتى لعل أبرزها غياب مشروع واضح، يستند إلى بنية وبرنامج واضحين، لتحرير فلسطين.

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 92

01 آذار 2024

وتفسر تلك الثغرة بالذات، برأيي المتواضع، سبب وجود كثيرٍ من التضحيات وقليلٍ من الإنجازات. فهناك من يتحدث كثيراً عن مقاومة الصهيونية وعن تجاوزاتها، وهناك من يتحدث عن "دويلة في حدود الأرض المحتلة عام 67"، وثمة من يتحدث عن "دولة واحدة لمواطنيها كافةً"، أو عن "كونفدرالية ثلاثية مع الأردن"، لكن الترياق الطبيعي الواضح لأي حالة احتلال، وهو التحرير الكامل، من دون لبس، يغيب عموماً عن برامج القوى المؤثرة حالياً في المشهد السياسي عربياً وفلسطينياً وخطابها، ما عدا حالتين بارزتين:

أ – السيد حسن نصرالله، الذي يكاد يكون خطابه متفرداً في التشديد على تحرير فلسطين كاملة في زماننا.

ب – حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، بسجلها ومواقفها وشهدائها ومقاتليها وقياداتها الميدانية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الجناح السياسي لحركة حماس في الخارج دأب بعض ممثليه على إطلاق تصريحات بشأن "الدولة المستقلة". كذلك نلاحظ أن وثائق "الوحدة الوطنية الفلسطينية" الموقعة مع السلطة تتضمن كلها بنوداً عن الدويلة في حدود الـ 67، ونلاحظ أن حماس دخلت الانتخابات عام 2006 تحت سقف اتفاقية أوسلو. لكننا لن نتوقف عند ذلك كله هنا.

قبل متابعة النقاش، لا بد من تثبيت نقطة مبدئية وهي أن دعم العمل المقاوم شيء، ومناقشة المواقف والخطوط السياسية شيءٌ آخرُ، فكل مقاوم ميداني من أي فصيل، أو من خارج أي فصيل، هو جنديٌ في جيش الأمة العربية والإسلامية وأحرار العالم، ولا يزايد قاعدٌ على مجاهد، ولا يفتي الجالسون للمقدامين، ومعاذ الله أن أكون من تلك الفئة.

مع المقاومة ضد الصهيونية والهيمنة الغربية إذاً، من دون تحفظ، لكن عندما يدور نقاشٌ بشأن التاريخ والإعلام والخطوط السياسية والفكرية، فمن حقنا وواجبنا أن نبدي الرأي، ومن هذا المنطلق أبديه هنا بوثيقة حماس الأخيرة، فنحن لا نناقش تصريحات أبي عبيدة المتعلقة بالشأن الميداني هنا، بل خط حركة حماس الاستراتيجي، من خلال ما طرحه مكتبها الإعلامي رسمياً في 2024/1/21.

كان يفترض بحركة حماس، خصوصاً بعد عملية "طوفان الأقصى" وما تلاها، أن تتراجع عما ورد في وثيقتها عام 2017 عن الدولة المؤقتة أو الانتقالية في حدود الأرض المحتلة عام 1967، لكننا وجدناها في وثيقة المكتب الإعلامي الأخيرة تكرس الحديث، تكراراً، عن "دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس"، مع إشارات متكررة إلى "القانون الدولي" و"القرارات الدولية ذات الصلة"، والتي تكرس حق الكيان الصهيوني بالوجود الآمن.

نجد في تلك الوثيقة مرافعة طويلة تحاول إثبات عدم تعرض حركة حماس للمدنيين في 7 تشرين الأول/ أوكتوبر، وهذا خطيرٌ جداً، لأنه يفتح الباب لإدانة كل من يستهدف مستعمراً مستوطناً في فلسطين تحت عنوان التعرض لـ "مدني"، ومن

ذلك عمليات الطعن والدهس البطولية في الضفة الغربية، ولا يوجد في الكيان الصهيوني مدنيون، فكل يهودي يدب على أرض فلسطين هو موضوعياً جزءٌ من المشروع الصهيوني.

ثمة إحالات كثيرة في وثيقة المكتب الإعلامي لحركة حماس إلى المحاكم الدولية والقانون الدولي، وها قد رأينا محكمة العدل الدولية تصدر أمس حكماً يدعو الكيان الصهيوني لضبط المجازر التي يقوم بها في غزة، من دون إيقاف الحملة، ويدعو المقاومة للإفراج عن الأسرى الصهاينة في غزة، فكيف نكرس المحاكم الدولية والقانون الدولي مرجعيةً لنا؟ وكل ذلك يقود إلى الاعتراف بحق الكيان الصهيوني بالوجود؟

كذلك، تتحدثون عن 105 أعوام هي عمر صراع الشعب الفلسطيني مع الاحتلال والاستعمار، والحقيقة أن هذا غير دقيق تاريخياً، إذ إن صراعنا مع الحركة الصهيونية وهجراتها ومستعمراتها في فلسطين بدأ منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في ظل الاحتلال العثماني، وهذا موثق، لمن يرغب في أن يجادل بالأرقام والتواريخ.

المطلوب الآن من حركة حماس شيءٌ واحد: العودة إلى مشروع تحرير فلسطين كاملة في وثيقة رسمية، لا في تصريحات إعلامية لبعض ممثليها والناطقين باسمها فحسب. كذلك، على جناحها السياسي أن يقرر: هل تريدون أن تناطحوا السلطة الفلسطينية، أم أن تقودوا مشروع تحرير؟

وفي جميع الأحوال، كل الدعم والمساندة لكتائب القسام وللأجنحة العسكرية الأخرى لكل الفصائل، وكل من يقف مقاتلاً في الميدان، من دون تحفظ.

*(نشر المقطع الأخير من هذه الورقة في الميادين نت، في 2024/1/27)

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

غزة: المعركة التي رسمت معالم المستقبل

واصل البدور

في ظل انعدام توازن القوى وانعدام الظرف المهيئ للتحرير أو للانتصار التقليدي في البعد البشري-المادي، أصبحت مسألة الصراع الحضاري وصراع الوجود في الصراع العربي-الصهيوني على المحك، حيث دأبت القوى الصهيونية، في هذا السياق، على ترويض العقل العربي بأداة الانظمة ليصبح ذلك الكيان متأصلاً في وجدانه، وأن المسألة مسألة عداوة وحدود ومطالب معيشية قابلة للحل، لتبهت حتى مسألة انتظار اللحظة المناسبة للتخلص من المحتل وتختفي عقيدة النشوء العربي ونشوء قوى الردع والتحرير من جذورها.

في هذه الظروف أتت حرب غزة لتنسف كل هذا النسيج وباتجاهين، الاتجاه الأول، إعادة العقل العربي إلى حيث يجب أن يكون ليستفيق من نشوة المصالح الغريزية ويصحو للصورة الكبرى والمصلحة العليا وإلى غير المُدرَك من العداء التاريخي والوجودي أمام القوة الصهيونية وظهيرها الإمبريالي. والاتجاه الثاني هو تحفيز صعود المتطرف الديني اليهودي الصهيوني الذي لا يقبل بأقل من الإذلال والموت للعرب، سواء كانوا أحلافاً أو أعداءً.

من محور آخر، وعلى الرغم من انصياع الأنظمة العربية للغرائز الصهيونية، أملاً في الحفاظ على عروشهم ونزواتهم، فإن الشعوب الآن، وضمن أركان الدولة، وقد تكون الجيوش في صفوفها المتوسطة والقاعدية ضمن هذا الإطار، بدأت تعيد حساباتها في أبعاد عدة، ابتداءً من العمق التاريخي الثقافي الذي يؤصل لوحدة اللغة والدم والدين، إلى عمق البعد الجغرافي-السياسي، والذي تدعمه حقائق البعدين التاريخي والمادي. فقد أصبحت الشعوب تنظر إلى القوة والأمن والتوازن، ضمن واقع التجزئة العربية القائم، بأن الذي يحكمها على أرض الواقع هو طبيعة العلاقات مع الجوار العربي، سواء لعدم وجود نموذج للقوة والأمن والتوازن خارج ذلك السياق، أو لمقارنتها بالنموذج المعادي وطبيعة تحالفاته وعلاقاته. على سبيل المثال، كيف تكون علاقات دولة عربية في توتر مع عرب مجاورين، مثل العراق وسورية، وفي نفس الوقت تؤمن تلك الدولة ذاتها احتياجات الكيان الصهيوني ليصمد في وجه غزة، وتحتضن أكثر من عشرين قاعدة أجنبية لا تساعد حتى في شرب الماء في هذه الدولة، بل وتجبرها على المشاركة في حماية تلك القواعد على سبيل المثال؟! إن ذلك ليس إلا انفصاماً في صميم الذات...

يأتي البعد الآخر من علاقة العرب مع الجوار من غير العرب. وإذا أخذنا هنا كحد أدنى المعاملة بالمثل، فسنجد أن هناك دولاً مثل دولة الأناضول تمثل خطراً لا يقل عن الخطر الصهيوني، حيث أنها تدعم بكل ما أوتيت أعداء العرب، وتسعى لخلق التوتر والاضطراب فيها، كما فعلت وتفعل في سورية والعراق، وتقدم كافة التسهيلات للعدوانات الغربية في المنطقة. وقد يكون وجه الخطورة في مثل هذه الدول، أنها وبمساعدة الإمبريالية والصهيونية، قد نجحت في خلق صورة نمطية مثالية استوطنت عقل الإنسان العربي وسيطرت عليه ودعّمت ذلك ببعض المصالح المادية والنزوات الفردية، وفي هذا الإطار لعبت على وتر النواقص لدى الشعب العربي المقهور ما جعل منها فريسة سهلة للانجذاب، وخاصة في ظل غياب الوعي القومي والمصالح العليا وعدم وضع العداء التاريخي في سياقه الصحيح.

بالنسبة لدول الجوار التي تشبه إيران، فعلينا أن نفهم راهناً، وعلى الرغم من العداء التاريخي، فإنها حليف استراتيجي ولكنها تبقى عربياً خارج العمق والامتداد الثقافي التاريخي. وكون هذا التحالف يصب في أحد جوانبه في الاتجاه الصحيح لبوصلة الأمة العربية، وهو تحرير الارض المغتصبة، فإن التحالف معها، وعلى الرغم مما ورد، يعتبر من مصالح الأمة المفصلية، على عكس الجوار المذكور سابقاً، والذي يتمثل دوره الوظيفي في تمهيد موطئ قدم للأعداء.

على الرغم من تجذر الاستلاب للجوار الأول والعداء للجوار الثاني إلا أن حرب غزة، في أقل حدودها، بدأت في قلب الموازين وإعادة الأفهام إلى ميزانها الصحيح لدى شريحة كبيرة من المخلصين لهذه الأمة. حيث بدا بارزاً التواطؤ الأناضولي الفاضح، وعلى الرغم من الاتجاهات الدينية الشاذة، والتي لا زالت تنادي بذاك النظام إما لمصلحة دنيئة أو لسيدٍ مشترك، وفي الطرف الآخر نجد الدعم الإيراني الذي فرض نفسه على أرض الواقع معززاً للأهداف العليا للأمة العربية. ومما يجدر ذكره هنا أن أول من رفع الآذان في مساجد أنقرة وإسطنبول زاعماً نصرة غزة هو أول من فتح النار على سورية العرب من الشمال نجدةً لأشقائه الصهاينة.

ومن المعالم الموسومة بانتصارات غزة الأخرى انتقال المبادرة في الحرب والمقاومة بشكل شبه كلي من الدول والحكومات إلى الشعوب (المقاومة في غزة، والمقاومات في لبنان والعراق واليمن)، وهذه طعنة سديدة في صميم المخطط الصهيوني المدعوم من الأنظمة العربية والمتمثل في خلق تيار عام يستسلم له كل من العقل والثقافة العربيين لوجود مصطنع تظهر فيه "الإبراهيمية" و"السلام" وكأنهما من طبائع الطبيعة.

أتت حرب غزة لتخرق ذلك عميقاً ولتنزع من القلوب ثقافة خلفتها كيانات وأنظمة مهترئة.

أتت حرب غزة على ما حاكته الأنظمة والكيانات العربية وتركته عارياً في مهب الرياح العربية ونزعت كل ما تبقى من بقايا ثقة في نظام متواطئ.

أتت حرب غزة لتخرِج الحقائق من كهوفها، حيث أن الحقيقة أول الطريق للفهم والوعي والتوحد، ومن ثم النصر والتحرير.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

طاقات الغضب من العجز أمام غزة تنذر بكارثة

كريمة الروبي

معركة طوفان الأقصى، ليست ككل المعارك التي مرت بتاريخ الأمة العربية ، لا في أحداثها ولا نتائجها ولا حجم تأثيرها، ليس على الشعب العربي فقط، بل على شعوب العالم أجمع. فقد رأوا عرباً غير العرب الذين يصورهم إعلامهم الكاذب طيلة الوقت، ووجدوا في فلسطين قضية عادلة تستحق المساندة والدعم. ورأوا شعباً صابراً صامداً، متحدياً العالم بقوة إيمانه، مقبلاً على الموت بكل شجاعة، متمسكاً بأرضه إلى آخر قطرة من دمه، حتى بات المؤمنون بعدالة القضية والمدافعون عنها من الأجانب، يملأون الساحات والميادين في بلدانهم، وينتشرون على مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة، للدفاع عن غزة وأهلها. ولأول مرة نسمع صيحات مدوية في العواصم الغربية تهتف (من النهر إلى البحر .. فلسطين ستتحرر) أي أنها أصبحت قضية مصير ووجود وليس قضية نزاع على حدود.

هذا الصمود الأسطوري وتلك الدماء الطاهرة التي جعلت شعوب العالم تولي وجهها نحو فلسطين بعد سنوات من التهميش ومحاولات تصفية القضية، لا شك أنها تركت أثرها علينا جميعاً حتى بصورة شخصية. فقد رأينا بأعيننا مشاهد لا يتحملها بشر تحدث لأخوة لنا في الدم والأرض والمصير، ولم نعد نرى معها لمشاكلنا الشخصية أية قيمة. فأي حزن هذا الذي يمكن أن يتخطى شعور أم بفقدان أبنائها، وهي تعد لهم الطعام فتدوي صرخاتها وهي تنادي عليهم (الولاد ماتوا بدون ما ياكلوا)، أو أب بفقدان جميع أفراد أسرته ولا يستطيع حتى أن يخرجهم من تحت الركام لدفنهم، وأي صمود هذا الذي يمكن أن يدعيه أحدنا بعد أن رأينا أباً يتحدث بفخر عن استشهاد اثنين من أبنائه الشباب، مؤكداً أنهم جميعاً مشاريع شهادة، وأي شجاعة تلك التي يمكن أن يظنها أحدنا في نفسه، بعدما رأى الأبطال يخترقون الحواجز ويقتحمون المستوطنات في السابع من أكتوبر، أو الذين يتصدون لآليات العدو المتوغلة في غزة، ويضعون عليها عبواتهم الناسفة في مهمات تصنف بالاستشهادية؟ هل يمكن بعدها أن نعود ونمارس حياتنا الطبيعية من دون أن نتأثر بكل تلك المشاهد، والتي أصبحت يومية على مدار ما يقرب من خمسة أشهر؟

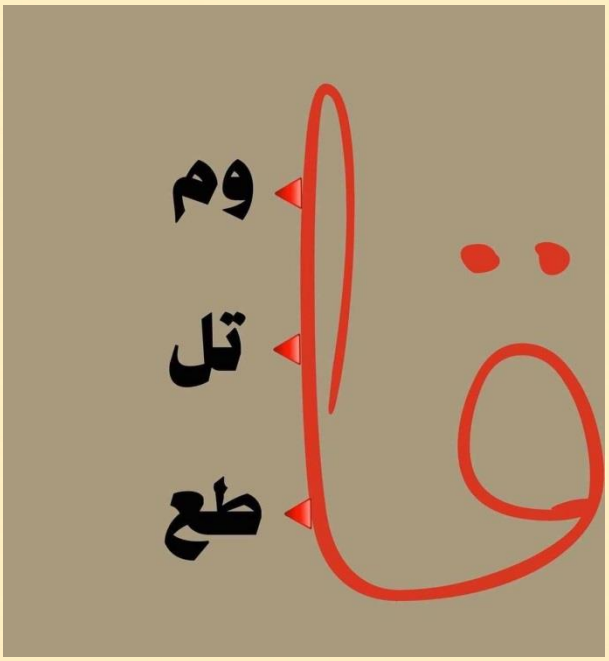

إن حالة الحزن التي بداخلنا، والغضب الناتج عن خذلان أنظمتنا، ومشاعر العجز عن نصرة أخواننا ونحن نراهم يومياً يُذبحون ويجوعون، ملأت قلوبنا براكين غضب أوشكت على الانفجار. وتلك الأنظمة سواء الضعيفة العاجزة منها أو المتآمرة، لن تسلم منه، ليست المشكلة فيهم فليذهبوا جميعاً إلى المصير الذي يستحقون، بل إن أوطاننا أيضاً لن تكون بمأمن من هذا الانفجار.

سمعت مواطناً مصرياً قومياً عروبياً، لا يمكن أن يزايد أحد على وطنيته وكراهيته لقوى الظلام الإرهابية، يقول أنه إذا كان الانضمام للجماعات المتطرفة هو السبيل الذي يجعلني أستطيع القيام بشيء تجاه ما يحدث في فلسطين، فلن أتردد في الانضمام إلى تلك الجماعات. هل يمكن أن تدرك أنظمتنا خطورة هذا التفكير الذي لو ساد بين جماهير الأمة العربية التي ترى كل هذا الضعف والهوان تجاه آلة القتل الصهيوأمريكية بجانب ما يعانونه في بلدانهم من قهر وفقر، لواجهنا

كارثة لن يأمن منها أحد، حتى عروشهم التي يتآمرون على شعوبهم للحفاظ عليها؟ لا أظنهم يدركون.. أو لعلهم مدركون ومتأكدون من تبعية الجماعات المتطرفة لربهم القابع بالبيت الأبيض الذي يحمي عروشهم ويظنون أنهم بذلك في أمان منها.

إن حجم الدمار الذي يمكن أن نشهده نتيجة أية مواجهة مباشرة مع العدو الصهيوني، لن يضاهي بأية حال ما يمكن أن يحدث من دمار وتفكيك وضياع للأمة من جراء انتشار الأفكار المتطرفة، والتي ستجد طريقها لشبابنا المحبط والمقموع. لن يرضى هذا الشباب بكل ما يمتلكه من طاقة، أن يبقى مغلولاً مغلوباً على أمره. لن تستطيع القبضة الأمنية مهما بلغت قوتها السيطرة عليه، ولكن هذه الطاقة المهدورة لن تكون وقتها في صالح تحرير الأرض، بل ستؤدي إلى إطالة أمد الوجود الصهيوني وتثبيته، والمزيد من السيطرة للقوى الاستعمارية على الأمة العربية.

إن الذين يخشون على أوطانهم من الدمار نتيجة مواجهة العدو الصهيوني وداعميه، عليهم أن يتأكدوا بأن خلاص أوطاننا لن يتم سوى بهذه المواجهة التي ستحرر الأرض والإنسان، وتخلص الأمة من عدوها التاريخي، وتضع حداً لغطرسة الأمريكي، وتسقط العروش المصنوعة والتابعة، وتعيد الثروات المنهوبة. فمهما كان حجم التضحيات فإنها ستحمي الأمة من مصير مرعب لن ينجو فيه ومنه أحد.

قوانين جديدة للصراع مع الكيان الصهيوني

نسرين عصام الصغير

قوانين الصراع تغيرت، إذ لم يعد يعني عدم إعلان الحرب عدم المشاركة فيها، وألا تكون ضلعاً أساسياً من أضلاع المعركة مع الكيان الصهيوني. فالمعركة بدأت في غزة لكنها لم تنتهِ فيها، بل امتدت إلى كل رقعة ترفض الهيمنة الصهيو-أمريكية. على سبيل المثال، لم نتخيل للحظة أن يكون اليمن، الذي لا تحده حدودٌ مع فلسطين، لاعباً أساسياً فيما تحول من معركة إلى حرب.

في يوم 3 تشرين الثاني، وقف العالم على رجل ونصف رجل منتظراً خطاب سماحة السيد حسن نصرالله بشأن معركة غزة. كان كثيرون ينتظرون إعلانه الحرب على الكيان الصهيوني. وعندما فرغ من خطابه، راح المحللون السياسيون يدلون بدلوهم، وكان كلٌ يغني على ليلاه فعلاً.

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 92

01 آذار 2024

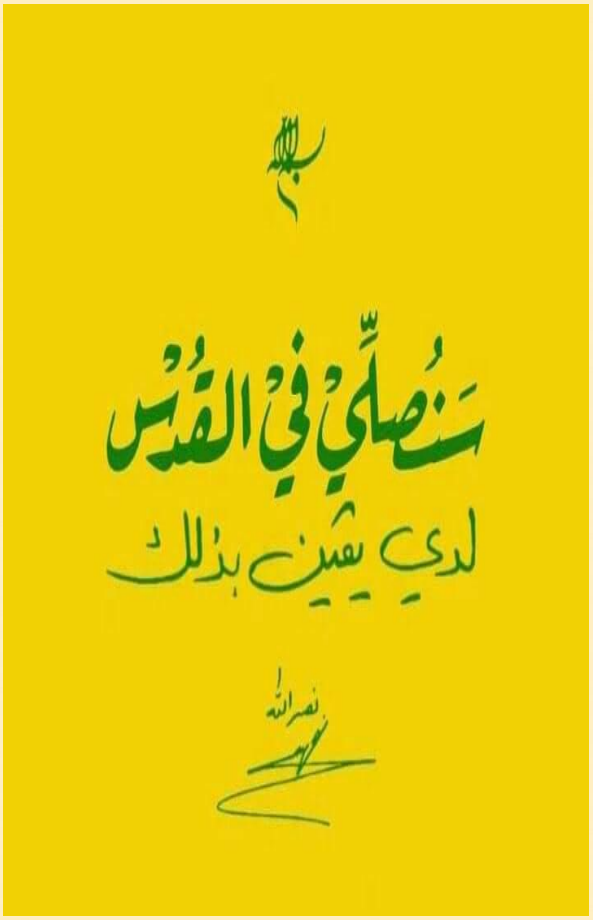

لم يعلن سماحته الحرب رسمياً، لكنه أنهى هكذا: "بيننا وبينكم الميدان والأيام والليالي". وبعد أكثر من 144 يوماً من العدوان على غزة، تتتالى الضربات الموجعة على الكيان الصهيوني من جنوب لبنان، ويرتقي مئات الشهداء، وما زلنا ننتظر من حللوا خطاب سماحته كي يفتوا إذا كان حزب الله قد دخل المعركة أم وقف متفرجاً أو متواطئاً كالأنظمة الخانعة التابعة.

اليمن الذي لا حدود له مع فلسطين، لأنها في قلبه، كان رده مزلزلاً. فمن المؤكد أن الكيان الصهيوني لم يتخيل لطرفة عين أن من الممكن مهاجمة سفنه وضربها وإحراقها كما جرى. لكن اليمن، حاصر الكيان الصهيوني في البحر الأحمر لأول مرة في تاريخه منذ تأسس. وعلى الرغم من العدوان الأمريكي الصهيوني المستمر عليه، إلا أنه لم يرتدع كما ادعوا، بل تضاعفت ضرباته.

وبرز ملياً، في معمعان الصراع، من الذي يحاول أن يمدد عمر الكيان الصهيوني لأطول فترة ممكنة في المنطقة: بريطانيا التي زرعته في فلسطين، والولايات المتحدة المستفيدة من وجوده لمنع أي محاولة وحدة أو نهضة في بلادنا.

العراق، وكم "كثر الحديث عن التي أهواها"، فكم هوينا العراق، ورغم كل محاولات الولايات المتحدة تمزيقه ونهبه وقتل أبناء شعبه وتفكيكه، إلا أن معدنه الأصيل ظهر في المحك، فالضربات العراقية كانت لرأس الحية مباشرة. وتلك الضربات ألحقت خسائر بالولايات المتحدة كلاعبٍ أساسٍ في المعركة، رغم أنها هي أيضاً لم تعلن الحرب رسمياً نصرةً للكيان الصهيوني.

وكما لاحظنا، كلما اشتدت قسوة ضربات المقاومة الفلسطينية لجيش الكيان الغاصب، هبت الولايات المتحدة لنصرتها سواء بضربات على سورية أو على المقاومة العراقية أو المقاومة اليمنية. لكنّ الرسالة من المقاومة العراقية كانت واضحة بأن أي قاعدة عسكرية أمريكية في وطننا العربي غير شرعية وغير مرحب بها، وهي مرمى لضربات المقاومة من دون رحمة ولا رأفة.

لا يقلل ذلك كله من الملحمة البطولية التي يجترحها أبطال الضفة الغربية رغم محدودية إمكاناتهم التدريبية والتسليحية، إلا أنهم برزوا مدرسةً فذةً في البسالة والقتال. وكل ليلة نرى جنين ونابلس وطولكرم وقلقيلة تُقتحم، ورغم قوافل الشهداء، نرى المقاومة تتوسع مع كل شهيدٍ جديدٍ على بساط الفداء والإقدام.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار2024

رب قائل إن هذا كلامٌ نراه على الشاشات يومياً، وربما يكون هناك من اعتاد المشهد، لكن كم من شبابنا فهموا أن المعركة لم تعد تقتصر على فلسطين؟ إذ مهما حاولت الولايات المتحدة وأوروبا حرف البوصلة عن القضية المركزية، فلسطين، سواء باختلاق قضايا خلافية كـ "الطائفية" أو "الربيع العربي"، فإن فلسطين اليوم، بعد طوفان الأقصى، عادت البوصلة وقِبلة المقاومة.

ماذا لو كان لليمن والعراق حدودٌ مع فلسطين المحتلة؟ هل كنا سنرى معبر رفح مغلقاً والحدود الشرقية للضفة الغربية محميةً للكيان الصهيوني؟ فتلك أنظمة فُصلت على مقاس الاحتلال الصهيوني كي ينام ليله الطويل من دون أن يهكل هم دعم الشعب الفلسطيني ومقاومته.

فعلاً، من دون إعلان حرب، نشاهد النجم الإيراني يسطع ليقول أنا هنا، وأنا قطب لا يمكن لأي مخلوق على وجه الأرض ألا يراني، فإيران قدمت الشهداء في الوطن العربي، وذلك هو المعنى الحقيقي لأن تكون رأساً لا ذيلاً، لا كمن يحاول أن يمارس حق النقض في مجلس الأمن، على الضد من الإرادة الصهيونية والأمريكية، ولا يقوى على ذلك.

فعلاً، سطرت المقاومة العربية ملحمةً في الأشهر الفائتة لم يشهدها العالم منذ أمدٍ طويل، وأثبتت أن الوحدة قوة، ولولا وحدة الساحات لوجدنا المخطط الصهيوني تمشي رياحه كما تشتهي سفنه، لكنّ المقاومة عكست اتجاه الرياح ومرغت أنف الكيان الصهيوني وكل من يدعمه، من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة إلى غيرهما، في التراب.

وكما قال سماحة السيد: هذا العالم لا يفهم إلا لغة القوة، واليوم يختبر العالم جزءاً من تلك القوة وذلك البأس.

في النهاية، البقاء للأقوى، وكما قال الرئيس جمال عبد الناصر: ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، وهذا العدو لا يفهم سوى لغة القوة، لا لغة المحاكم الدولية والقانون الدولي الذي غرق حتى الأذنين في دماء أصغر طفلٍ استشهد في غزة.

عاش الكفاح المسلح والمقاومة المسلحة.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

المشروع السياسي اليهودي قبل الاستعمار الأوروبي الحديث:
الجذور الخلاصية-القبلانية للحركة الصهيونية في كتابات المؤرخ يوسف هندي

إبراهيم حرشاوي

سطع نجم المحلل السياسي والمؤرخ المغربي-الفرنسي يوسف هندي في الأوساط المناهضة للكيان الصهيوني في فرنسا خلال السنوات الأخيرة بعد دفاعه عن أطروحة تفند مسألة ارتباط الحركة الصهيونية بسياق "معاداة السامية" في أوروبا وظهورها كحركة "تحررية" في القرن التاسع عشر. فهو يضع نضوج الرغبة اليهودية في احتلال فلسطين ضمن إطار عقائدي يهودي وتجلياته السياسية، إذ إن هذه الرغبة وثيقة الصلة، بحسب هندي، بنشأة حركة سياسية-دينية لدى يهود أوروبا في القرون الوسطى. وقد أطّر هذا الطرح من خلال نشر دراسة شاملة باللغة الفرنسية تحمل عنوان "الإسلام والغرب" في سنة 2015. وكان صدور كتاب هندي علامة فارقة في مسيرة مواجهة السردية الصهيونية، وخصوصاً في السياق الأوروبي، وتحديداً الفرنسي، والذي كان يشهد فوراناً سياسياً وشعبياً ضد السياسة النيوليبرالية، مترافقاً مع مواقف جذرية وأفكار معارضة بدأت تظهر وتنتشر وتتصلّب.

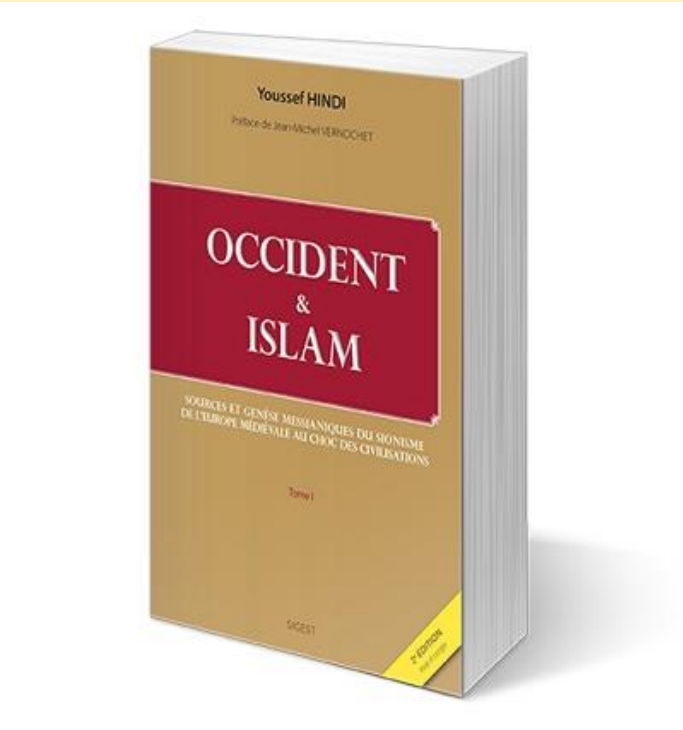

وفي ظل هذا المناخ السياسي، ساهم في ترويج كتاب هندي عبر ندوات ولقاءات مشتركة الكاتب والناشط الفرنسي المناهض للإمبريالية الأمريكية "جان ميشل فيرنوشي"، إذ إنّ فيرنوشي وغيره من الشخصيات المقربة من هندي، ومن بينهم المعارض الفرنسي "ألان صورال"، ينتمون إلى تيار سياسي يميني يضم عناصر من خلفيات شيوعية تجمعهم فكرة الدفاع عن السيادة الفرنسية والقيم المحافظة، بالإضافة إلى مناهضة الصهيونية والإمبريالية الأمريكية. ويعيش هذا التيار حالة تمرد على المنظومة الفرنسية، كما ظهر بعد انخراطه ودعمه المؤثر للحركة الاحتجاجية "السترات الصفراء"، والتي شكلت تحدياً حقيقياً للطبقة الحاكمة بفرنسا.

يعالج كتاب هندي منبع هذه الحركة الخلاصية اليهودية ضمن البيئة القبلانية التي نشأت بالجزيرة الإيبيرية طيلة القرن الثالث عشر. وهي، بحسب هندي، نقطة انطلاق الحركة الخلاصية اليهودية الساعية إلى احتلال فلسطين، باعتبارها لحظة تاريخية فاصلة تمثل قطيعة مع المرحلة التي سبقتها من التاريخ السياسي اليهودي. وتحققت هذه القطيعة بتمرد القبلانيين على القرار الحاخامي (الحاخام هيلبو) الذي منع اليهود منذ العقد الثالث من اتخاذ أي مبادرة لتسريع قدوم المخلص ولكشف علامات الساعة للأمم والشعوب، بحكم أنها شروط مرتبطة بتأسيس كيانهم المزعوم.

ويسجل موقف الحاخام موشه بن نحمان (1194-1270)، وهو أحد رموز القبلانية بإسبانيا التي انتعشت بقوة في تلك المرحلة بفرنسا والجزيرة الإيبيرية والمغرب، هذه القطيعة بإجازة كل ما تم تحريمه منذ القرن الثالث، جاعلاً من القبلانية أول حركة يهودية منظمة تطمح بوسائل دينية-سياسية إلى تحقيق قدوم المخلص وتتويج ظهوره باحتلال فلسطين.

ولا يكتمل التعريف بأهمية شخصية بن نحمان إذا لم نتوقف عند دوره في إعادة توطين اليهود بمدينة القدس بعد إبعاد اليهود منها من قبل الصليبيين. فمن المعروف أن بن نحمان أسس أول كنيس بالقدس بعد سقوط "مملكة بيت المقدس"، (كنيس رمبان)، بحسب بعض الروايات التاريخية، محاولاً بذلك نشر الثقافة اليهودية وتحريك عجلة "عودة" اليهود إلى فلسطين.

إن ما يفهم من نشاط بن نحمان في فلسطين باعتباره نشاطاً يهودياً ملموساً لتفعيل فكرة "العودة"، هو أنه نشاط يعود إلى الهامش الذي أتاحه صلاح الدين الأيوبي لليهود بعد معركة حطين، وبالأخص بعد السماح لهم بالعيش بمدينة القدس المحررة. وليس مستبعداً أن يكون من بين الأمور التي جعلت صلاح الدين الأيوبي يتجاهل هذا التغلغل هو تأثره المحتمل بطبيبه الشخصي، الفيلسوف اليهودي "موسى بن ميمون القرطبي" (1135-1204)، المعروف بنظرياته القبلانية وطموحه لإقامة "إسرائيل"، كما جاء في مقدمة مبادئه الثلاثة عشر.

وقد ظهر في نفس المرحلة حاخام قبلاني آخر، وهو "أبراهام أبو العافية" (1240-1291/1292) الذي حاول أن يلتقي بابا الفاتيكان نيكولا الثالث، ليقنعه بضرورة اعتناق اليهودية بغرض"تحرير اليهود من منفاهم" ونقلهم إلى فلسطين. وبناءً على محاولة أبو العافية الاقتراب من أعلى سلطة مسيحية على أساس "عقيدة العودة" إلى "أرض الميعاد"، يرى هندي بداية مسيرة طويلة لقيام تحالف استراتيجي بين القبلانيين اليهود والسلطة الدينية والدنيوية بأوروبا المعروفة بعدائها للمسلمين.

تجددت محاولات الاقتراب من مراكز السلطة الأوروبية إبان القرن السادس عشر مع الحاخامين "دافيد روفيني" (1490-1541/1535) و"سولومون مولخو" (1500-1532)، حيث حاول "روفيني" أن يلتقي بملك البرتغال "جون الثالث" ليقترح عليه فكرة تشكيل جيش يواجه العثمانيين لفتح الطريق لـ"عودة" اليهود إلى فلسطين. بعد ذلك، حاول الحاخامان إقناع أقوى إمبراطور بالقارة العجوز آنذاك، ألا وهو شارل الخامس المتربع على عرش "الإمبراطورية الرومانية المقدسة"، بـ"إعادة" تأسيس مملكة "إسرائيل"، كما حاولا إقناعه بإعتناق اليهودية، إلا أن محاولاتهما باءت بالفشل.

ويصف هندي هذه المرحلة بالمفصلية بفعل تجسيدها للاحتكاك بين المفاهيم اليهودية-المسيحية، وخصوصاً تلك المتعلقة بـ"أرض الميعاد"، آخذاً بعين الاعتبار هذا التفاعل بين الجانبين ضمن سياق ظهور البروتستانتية التي هوّدت فئة واسعة من المسيحيين بإبرازها مركزية العهد القديم كمرجعية. فمفهوم "اليهودية-المسيحية" (Judeo-Christian) يعكس هذا التحوّل الذي يتجلى في تأرجح الكنائس الغربية بين التبعية والتحالف مع اليهودية.

على سبيل المثال، نلاحظ في نفس المرحلة ظهور دعوة لإنشاء كنسية "يهودية-مسيحية"، أطلقها الداعية الهيجونوتي (نسبةً لطائفة بروتستانتية في فرنسا) "إسحاق لا بيرير" (1596-1676)، والمتشبث هو الآخر بالفكر الخلاصي الرامي إلى إنشاء "مملكة إسرائيل" في فلسطين. ومن بين الأمور التي عبّر من خلالها عن أفكاره الخلاصية نشره لنداء بعنوان "Du rappel des juifs"، أو "دعوة لليهود" يطالب فيها يهود فرنسا بـ"العودة" إلى "إسرائيل" تحت إشراف الملك الفرنسي. وتجدر الإشارة إلى خلفيته اليهودية المحتملة، إذ توجد إشارات في بعض المصادر عن أصوله اليهودية، وأنه ينحدر من عائلة تنتمي إلى "الكونفرسوس" (اليهود الذين اعتنقوا المسيحية عقب حروب الاسترداد)، وهي بالمناسبة فئة يهودية شاركت في اختراق المسيحية عبر إدخال مبادئ القبلانية، وساهمت بالتالي في إنشاء ما يعرف بـ"القبلانية المسيحية" منذ أواخر القرن الثالث عشر. أما سياسياً فكان "لا بيرير"على اتصال بِـ"منسي بن إسرائيل" (1604-1657)، أحد الوجوه البارزة ليهود هولندا في القرن السابع عشر، ضمن ما يمكن اعتباره "شبكة الحركة الصهيونية" لتلك الحقبة.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

وفي تحليله لأطوار تكوين التحالف اليهودي-المسيحي (المسيحية بمفهومها البروتستانتي)، وبالأخص في العالم الأنجلوسكسوني، يتوقف هندي عند محاولة "منسي بن إسرائيل" الناجحة في عقد صفقة مع الثائر على الملك الإنجليزي "أولفر كروميل" تسمح لليهود بالعودة إلى إنجلترا بعد منعهم من الإقامة فيها منذ نهاية القرن الثالث عشر. وقد اقترن اسمه في هذا المضمار بالمصرفيين اليهود الذين مكنهم من نقل ثقلهم المالي من هولندا إلى إنجلترا بعد نجاح صفقته مع "كروميل". وكان "منسي بن إسرائيل" العالم اليهودي والقبلاني يتمتع بجاه عريض عند اليهود في غرب أوروبا، واشتهر بكتابه "أمل إسرائيل" (De hoop van Israel)، الذي كتبه بعد انتشار ادعاءات عن "اكتشاف" مجموعات يهودية معزولة بالعالم الجديد، إذ جعلته يعتقد أنهم من الأسباط المفقودة التي يبشر ظهورها بقدوم المخلص، بالإضافة إلى زعمه أن مؤشرات أخرى حول قرب ظهور المخلص تمثلت في طرد اليهود من فرنسا وإنجلترا (بالقرن الثالث عشر) والأندلس (بالقرن الخامس عشر).

يبدو مرة أخرى أن الخلاصية اليهودية لم تكن ظاهرة معزولة عند بعض القبلانيين، بل كانت هذه الخلاصية أبرز دوافعهم السياسية، والتي عرّفها هندي بـ"الخلاصية النشيطة" (messianisme actif). إذن، هما صنوان لا ينفصلان ضمن المسيرة السياسية اليهودية منذ فترة الحاخام موشه بن نحمان، مروراً بتجربة الحاخام سباتاي زيفي (1626-1675) الذي تقمص دور المخلص وخطّط لإنشاء إمبراطورية يهودية داخل الدولة العثمانية، ووصولاً إلى الحركة الصهيونية المعاصرة. فالقبلانية لم تساهم في تمهيد الطريق لمشروع الصهيوني المعاصر المرتبطة باسم ثيودور هرتزل فحسب، بل نجحت أيضاً في تشبيك علاقات متينة بالدوائر الحاكمة بأوروبا التي تمخض عنها التحالف اليهودي-المسيحي البروتستانتي المشار إليه أعلاه.

وبالنسبة لثيودور هرتزل ومفهوم الصهيونية الحديثة المرافق لتجربته، لا يميّز هندي بينه وبين النشاط السياسي لدى الحركة القبلانية-الخلاصية، ويعتبرها النسخة العلمانية للمشروع الخلاصي اليهودي، مع تأكيده على أن الصيغة الحديثة للصهيونية انطوت كذلك على خطاب ديني، معززاً كلامه بمواقف هرتزل و بن غوريون إزاء جوانب مختلفة للمشروع الصهيوني الحديث، ولا سيما تصورهما الديني لحدود الكيان الصهيوني.

تضمنت هذه المرحلة المعاصرة للنشاط السياسي اليهودي، والتي تعتبرها معظم المراجع التاريخية "بداية" الصهيونية، تيارين: تيار "الصهيونية الاستيطانية"، والذي يمثله فيلسوف الحركة التنويرية اليهودية "موسى مندلسون" (1729-1786)، والمؤمن بالمواطنة والتحرر الاجتماعي لليهود في الدول الغربية، وتيار "الصهيونية التوطينية" لـ"بيريتز سمولينسكين" (1842-1885)، وهو في الحقيقة جناح راديكالي للحركة التنويرية اليهودية، والمعروف بتعريفه اليهود كـ"أمة" على غرار التعاريف المعاصرة للأمم، بعد تأثر هذا الجناح بالمفاهيم القومية المصاغة من قبل الفلاسفة الألمان كفيشته وهردر.
وتتكشّف السياسة الاستعمارية لهذا التيار، والذي سيتزعمه لاحقاً ثيودور هرتزل، في بلورة المكونات لتأسيس "أمة" إحلالية استيطانية بفلسطين، وأهمها آنذاك تطوير لغة قومية لليهود التي سيطلق عليها اسم "العبرية المعاصرة" من قبل أحد المتزعمين لمجموعة "سمولينسكين"، وهو اليهودي الروسي إليعيزر بن يهودا.

وختاماً نقول إن كتابات ومحاضرات هندي عن هذا الموضوع أطلق حواراً مثمراً وعقلانياً في فرنسا حول العلاقة بين اليهودية والصهيونية والخلاصية، علماً أنّ الخلاصية تُعتبر حالياً أقوى قوة سياسية في الكيان الصهيوني. لعل خطوة هندي في كتابة " الإسلام والغرب" هي الخطوة التي كان ينتظرها التيار المؤيد للقضية الفلسطينية في فرنسا (وخارجها)، حتى يتمكن من نشر سردية مناهضة للصهيونية انطلاقاً من قراءة تاريخية للمشروع السياسي اليهودي. ففي أطروحته عمق ودقة وإحاطة وانتماء، وهي عناصر لا تتوفر لغير أصحاب الأقلام الملتزمة الساعية إلى تفكيك الرواية الصهيونية من مفاصلها التاريخية والعقائدية. ولعل لخلفية هندي العربية-الإسلامية أثر في ذلك. إن القارئ المتأني يرى في ما كتبه هندي دعوة صريحة إلى ربط المشروع الصهيوني بالجانب السياسي للعقيدة اليهودية، أو بمعنى أدق بطائفة يهودية باطنية وازنة وهي القبلانية التي فعّلت رسالتها الخلاصية وترجمتها إلى مشروع سياسي عملاق.

مراجع:

-Youssef Hindi, **Occident et Islam: sources et genèse messianiques du sionisme de l'europe medieval au choc des civilizations**, éditions Sigest,Afortville, 2015.

-Diverse auteurs, **Joden in de wereld van de islam**, Bulaaq/Joods historisch museum, Amsterdam,1995.

-Michael Stanislawski, **Zionism: a very short introduction**, Oxford University Press, New York,2017.

- Youssef Hindi, essayiste **: "Le sionisme contemporain est la forme sécularisée d'un projet messianique"** : Maroc Hebdo (maroc-hebdo.press.ma).

- James A. Diamond : **" Maimonides and Medinat Yisrael "**: (jewishreviewofbooks.com).

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

منبر حر: فلسطين هي القاسم المشترك الأعظم عروبياً وإسلامياً وديموقراطياً

فتحي الشقاقي (1994)

(الورقة التي قدمها د. فتحي الشقاقي في المؤتمر القومي-الإسلامي الأول المنعقد في بيروت في تشرين الأول / أوكتوبر 1994، ومن المعروف أن القائد الشهيد الشقاقي هو مؤسس حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، وأمينها العام حتى استشهاده في مالطا على يد الموساد الصهيوني في 1995/10/26. ونحن نقدمه هنا مفكراً حريصاً على بناء جسور التواصل مع التيار القومي على أرضية برنامج تحرير فلسطين، إذ إن "فلسطين أيديولوجيا الزمن العربي والإسلامي المعاصر، بل عنوان نضال الإنسان"، كما يبدع الشقاقي، وعلى أرضية ربط العروبة والإسلام، ومناهضة الليبرالية، وتجاوز دولة التجزئة القُطرية. أما القضايا الأخرى، فنتركها للنقاش طبعاً)

بعد عشرات السنين التي بدأت مع مطلع هذا القرن وشهدت تدافعاً وتصارعاً بين التيار القومي العربي وبين التيار الإسلامي، فإن أجواءً من المهادنة، بل والمصالحة، بدأت تلوح في الأفق، إذ يبدو أن الطرفين قد أنهكا من التصارع بلا جدوى بالإضافة إلى أنهما باتا يشعران بأن وجود كلٍ منهما مهدد. وبسبب هذا التداخل بينهما وشيوعهما، وبسبب ضراوة الزحف الإمبريالي وتطوره وتعقيده وتهديده لهما معاً، فقد نضجت الظروف ليواجها حقيقة القواسم المشتركة بينهما.

مع نهايات القرن الماضي ومطلع القرن العشرين، بدت بواعث التجاذب بين التيارين بريئة وحجم التناقض محتملاً، وكأن الأمر لا يتجاوز المدارس الاجتهادية في أحيانٍ كثيرة. مع الوقت، وبعد مزيدٍ من الاضطراب والتوتر والتدخل في المنطقة، تحول كل طرف ليظن أنه قادرٌ على نفي الآخر. وفي منتصف القرن وحتى هزيمة 1967، كان التيار العروبي تحديداً يظن أنه حسم التدافع والتصارع لصالحه وأنه حقق نفياً مؤكداً للتيار الإسلامي.

كان الغرب يريد المنطقة على صورته وسوقاً له وسلعة، ولذا شجع على ضرب الإسلام بدءاً من الإطار العثماني المهترئ إلى آخر مؤسسة إسلامية استطاع أن يصل إليها ويترك بصماته هناك وحتى آخر مجاهد إسلامي استطاع محاصرته

ومطاردته. لقد شجع الغرب على تفتيت الإطار الإسلامي الجامع ليس حباً في إطار قومي فاعلٍ وحيٍ، ولكن على أمل الإيغال في التصغير والتجزئة، وعلى أمل ملء ما يمكن أن ينشأ من فراغ أيديولوجي وفكري، وتحقيقٍ الإلحاق الثقافي بالغرب.

لكنّ الصورة التي أرادها الغرب لم تتحقق، إذ فشل في زرع الليبرالية والنموذج الليبرالي الذي أراد، وقفز فجأةً إلى الإقليمي اللقيط، متجاوزاً الإطار القومي، مانعاً له ومحارباً، فالاستعمار يريد أن تعود المنطقة إلى ما قبل الإسلام الذي صهر الأقاليم والطوائف والمذاهب والحضارات الصغيرة والكبيرة في بوتقة واحدة، فيما مشروع الغرب القائم على منهجية الصراع يريد أن يخترق المنطقة بتمزيقها قومياً وإقليمياً وطائفياً، وبعثرتها إلى مكوناتها الأولى، ما قبل الجامع الإسلامي الأكبر.

صحيحٌ أن الغرب استطاع أن يُسقِط بعض الاتجاهات القومية في براثن العلمنة التي تدعو إلى محاربة الدين وشطبه في واقع الحياة، ولكنه كان يحاول فرض دولة التجزئة القُطرية إلى جانب العلمنة، مما وسع من حجم التناقض بينه وبين التيار القومي الذي ظل مصراً على دعوته إلى الاستقلال والوحدة. وهكذا، وفي حين سقطت القوى القُطرية تماماً تحت حوافر الغازي وفي أحضانه، فقد وقف التيار العروبي، وخاصة التيار العروبي غير المتغرب، وقف في وجه الغرب الاستعماري كما وقف التيار الإسلامي، رغم استمرار التصارع بين التيارين حول أولوية العروبة وجامع اللغة والتاريخ كأساس والجغرافيا كمناط، إضافةً إلى العلمنة أحياناً، هذا بالنسبة للتيار القومي العربي، وحول أولوية العقيدة والأيديولوجية والهوية وتطبيق الشريعة بالنسبة للتيار الإسلامي، ولكن مع تقدم الغازي الأجنبي، وتعقيد أساليبه وتطورها، بات واضحاً لكل من التيارين أنه ليس فهم وتحليل وتفسير كل منهما هو المهدد بالتغييب، ولكن وجودهما معاً هو المهدد. إن استمرار الإسلام كعقيدة، والعرب كقوم وأمة، أصبح على المحك.

إن هذا الإحساس وهذا الوعي أعادنا جميعاً إلى نقطة هادئة، هامة وموضوعية، للبدء بعيداً عن صخب التدافع والتصارع، فقد بات مدركاً اليوم من كلا التيارين، ومن الآخر أيضاً، مدى الإمكان النضالي والتحرري والتوحيدي والنهضوي للطرفين، ومدى التداخل التاريخي والحضاري بينهما. فلقد عاشت الأمة ثلاثة عشر قرناً لا تعرف إلا الترادف بين مصطلحي العروبة والإسلام.

نعرف أن مرارات وخسارات سنوات وساحات التصارع بين العروبي والإسلامي كبيرة، ولكن علينا ألا نجمد عند هذا الماضي القريب وجنونه وجموحه، بل ننطلق إلى المستقبل ونحن نخرج من هذا الماضي بتجربة ودرس الأخطاء والمعوقات التي لا بد من تجاوزها إن أردنا أن نستمر في الحياة وأن يكون لنا رسالة في هذا العالم.

إن الحوار الفكري يجب أن يستمر في حين يبقى الاجتماعي قابلاً للتنوع حتى داخل نفس التيار، ومع تراجع الماركسية أصبح الاجتماعي أقل حدةً وأقل ضغطاً على الأعصاب والنفوس. أما السياسي، فهو مدخلنا اليوم إلى التوحيد في مواجهة الغرب، وتأتي فلسطين في قلب هذا السياسي، رغم أنها لا تنفصل عن كافة الأبعاد الأخرى، من فكري واجتماعي وحضاري: فلسطين أيديولوجيا الزمن العربي والإسلامي المعاصر، بل عنوان نضال الإنسان، فهل هناك ما هو أدعى للتوحيد والنهوض؟

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

إن فلسطين بحكم حضورها في مركز التحدي الغربي الاستعماري لشعوبنا وأمتنا، وبحكم حضورها أيضاً أو تالياً في مركز المشروع العروبي والمشروع الإسلامي المضاد، ستبقى رمزاً أو دالة على حريتنا أو عبوديتنا، استقلالنا أو تبعيتنا، نهضتنا أو تخلفنا، دالة على التزامنا الإسلامي والعربي، أو خسراننا، وربما على إيماننا أو عدمه.

من هنا يصبح الالتزام بفلسطين هو القاسم المشترك الأعظم عروبياً وإسلامياً وديموقراطياً أيضاً. لأن الالتزام بفلسطين يعني أكبر مشاركة شعبية على المستوى الفلسطيني والعربي والإسلامي. إن هذه المشاركة الواسعة تعني إثراء الحياة السياسية بالنسبة للمستويات المذكورة، فليس معقولاً أن يكون هناك التزام حقيقي للشعب الفلسطيني بقضيته من دون مشاركته الكاملة في الرأي والفعل والتفاعل السياسي من حولها، وهذا تعميق لمسيرة التشاور والديموقراطية لأن الطريق إلى فلسطين هو طريق الشعب وطريق الجماهير، وليس طريق النخبة والنظام الحاكم.

وليس معقولاً أن يكون هناك التزام عربي مغربي أو عراقي على سبيل المثال بالقضية الفلسطينية بدون مشاركة الشعب العربي المغربي أو العراقي في الفعل والتفاعل السياسي من حول فلسطين، وهذا يستدعي حضور أشكال وأطر وممارسة ديموقراطية تسمح لهذه الشعوب بتقديم مساهمتها ومشاركتها الجادة والحقيقية، فأوسع التزام عربي شعبي بفلسطين يعني أوسع ممارسة ديموقراطية.

وهنا يمكننا أن نلحظ ارتباط تحرير فلسطين بمسألة حقوق الإنسان بمدلولها السياسي والاجتماعي، وليس معقولاً أن يكون هناك إسلامي إيراني أو باكستاني أو تركي بفلسطين بدون أن نرى هذه الشعوب المسلمة تندفع في الشارع دفاعاً عن فلسطين وضد ارتباط الحكام بالتحالف الغربي الصهيوني، وهذا يعني حضور الديموقراطية نظرياً وعملياً.

إن العملية والممارسة والخطاب الديموقراطي مسألة في منتهى الأهمية خاصة كلما كان الأمر يتعلق بفلسطين، فالتعامل غير الديموقراطي مع مسألة الانتفاضة هو الذي حولها إلى مجرد حالة فلسطينية، وهو الذي جرجرها من الشارع الفلسطيني العام إلى زواريب الأحزاب والتنظيمات، وهو الذي جعل الرسميين يستسهلون التعامل معها كمشروع للاستثمار العاجل والسريع، لا كمشروع استراتيجي للتحرير ورأس رمح لقيام عربي إسلامي شامل، وهو الذي أدخلها أخيراً وراء الأبواب السرية والسرية جداً ليختزلها في النهاية إلى اتفاق غزة-أريحا المشؤوم، والتعامل غير الديموقراطي مع الانتفاضة هو الذي هيأ لبعض الأنظمة قمع شعوبها التي خرجت للتضامن مع الشعب الفلسطيني.

وفي حين كنا نشهد حضور أحزاب وجماهير أوروبية (إيطاليا نموذجاً) في الشارع تضامناً مع الانتفاضة، كان القمع ضد المتعاطفين معها على أشده عربياً (مصر والمغرب نموذجاً). إن الالتزام بالديموقراطية يعني مزيداً من الالتزام بفلسطين، وإن الالتزام بفلسطين يعني المشاركة الأوسع، أي الديموقراطية.

أخيراً، ونحن نشهد يقظة الوعي العروبي والإسلامي باتجاه العودة إلى الينابيع تصالحاً وتوحيداً، لا بد أن نلحظ الأسس التالية:

1 – الصراع مع التحالف الغربي / الصهيوني يمس كينونة الأمة ووجودها وهويتها وحقها التاريخي في وطنها وبلادها وقرارها المستقل.

2 – بدون حسم الصراع على فلسطين، فكل محاولات الأمة للنهضة والاستقلال ستجهض أو تحاصر أو تدفع الأمة تكاليفها مضاعفة، تضحياتٍ وزمناً على السواء.

3 – في حين يمكن أن نختلف حول طريقة إدارة الصراع على المستوى التكتيكي، فلا بد من الإجماع حول أهداف وقضايا الأمة الاستراتيجية الكبرى مثل فلسطين.

4 – على التيارين العروبي والإسلامي أن يؤكدا التزامهما بأن الصراع مع الخارج له الأولوية المطلقة، وأن الاختلافات الداخلية السياسية والأيديولوجية تحل بالحوار بعيداً عن أي عنف.

5 – ليس من تلازم ضروري بين العروبة (القومية العربية) والعلمانية. فالعلمانية التي تعني فصل الدين عن الدولة حقيقة غربية لا تتطابق مع واقعنا العربي الإسلامي. فالقومية العربية تختلف عن القومية الغربية في مضمونها ونشأتها. كما أن الإسلام يختلف عن الكنيسة في مضمونه ودوره آلية عمله، وبالتالي ليس بالإمكان نسخ تجربة الكنيسة مع البرجوازية الأوروبية والقوميات الأوروبية وتطبيقها على الواقع العربي الإسلامي بلا أي سند تاريخي أو اجتماعي.

العلمانية موقف منفصل عن الموقف القومي، وليس من داعي لافتعال رابط لا أساس منطقياً له.

6 – كما هو مطلوب من التيار القومي إعادة قراءة الحركة الإسلامية من دون الإحالة على الخارج، فالحركة الإسلامية مطالبة بنفس الشيء، ومطالبة بإعادة تقييم بعض التجارب القومية، وتعميق تحالفاتها السياسية مع القوى الوطنية الجادة لأجل خلق جبهة عريضة في مواجهة نظام القُطرية والتبعية الذي أصبح أداةً طيعة في أي تشكيل أو مصير يراد للمنطقة، سواء على شاكلة "شرق أوسط جديد"، أو غيره من تصورات الغرب الاستعماري للمنطقة.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

7 - حقوق الإنسان، التنمية، التعددية، عناوين يجب أن تحظى بعناية ورعاية وجهد الحركة الإسلامية، واعتبار أن المتحد العروبي الإسلامي هو الصيغة الجامعة للعرب المسلمين والعرب غير المسلمين، وهو الصيغة الحافظة لحقوق الجميع وحرياتهم، بما في ذلك المواطنة للجميع.

8 – في نفس الوقت الذي يجب أن ينتهي فيه التناقض الوهمي بين العروبة والإسلام، فإن القوى القومية والوطنية مطالبة بالاعتراف بدور الإسلام التاريخي والمعاصر والمستقبلي كعقيدة ونمط حياة لمعظم جماهير أمتنا، وأن قوة الإسلام هي القوة الرئيسية التي ما زالت واقفة ومرشحة لمواصلة الصراع مع الغرب ومشروعه في الهيمنة والسيطرة، وأن هذه القوة هي المرشحة لقيادة تحالف المستضعفين والمظلومين في العالم أجمع خلال العقود القادمة من أجل عالم أكثر عدالةً.

مستقبل منظمة التحرير الفلسطينية

ناجي علوش (1994)

(مجلة "الكاتب الفلسطيني"، الصادرة عن اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين في دمشق، العدد 27/26، خريف 1994)

1 – مدخل:

ما مستقبل م. ت. ف؟ إنه سؤالٌ يستحق الإجابة الآن، بعد أن تحولت قيادة المنظمة عن برنامج التحرير، الذي تبناه الميثاق، إلى اتفاق أوسلو.

ولقد قام الميثاق على الأسس التالية:

1 – أن فلسطين عربية، وأنها يجب أن تظل عربية.

2 – أن استعادة فلسطين لا تكون إلا بالتحرير، والتحرير لا يكون إلا بالمقاومة المسلحة، والمقاومة المسلحة هي الطريق الوحيد لتحرير فلسطين.

3 – أن أي حل يتضمن الاعتراف بالعدو، أو التنازل عن أي شبرٍ من الأرض، لا يمكن أن يُقبل، وأن كل قرار يتضمن الاعتراف بالعدو، يجب أن يُرفض.

لكنّ هذه الأسس التي ظلت، كما هي في الميثاق، بدأ التحول النظري عنها منذ إقرار النقاط العشر في المجلس الوطني سنة 1974، وظلت التنازلات تتوالى حتى وافقت اللجنة التنفيذية للمنظمة على اتفاق غزة-أريحا.

فما سر هذا التحول؟ ولماذا حدث؟ وكيف حدث؟ هل جاء نتيجة تراجعات الوضعين العربي والدولي، أم جاء بسبب تحولات داخلية في أطر المنظمة والفصائل؟

إن هذه الأسئلة بحاجة إلى أجوبة.

لكننا، قبل أن نجيب، نرى من الضروري أن نوضح ما يلي:

أولاً: إن هذا السؤال حول مستقبل المنظمة كان يجب أن يُطرح منذ نشأت المنظمة، سنة 1964، لأن خللها ولد معها.

ثانياً: إن التأخر في طرح هذا السؤال، حتى لو كان مقبولاً حتى سنة 1974، فإن انتظار كل هذه السنوات، لاكتشاف الحقيقة المرة التي ذاق مرارتها كل الشعب الفلسطيني، وعرف مراراتها كل القادة ورجال الأحزاب السياسية، ومعظم رجال الفكر والأدب والإعلام، وقطاعات من الجماهير، في فلسطين والأردن وسورية ولبنان، وحتى تونس والجزائر والعراق، إن انتظار كل هذه السنوات أمر يدعو إلى الشك في المقدرة على الحكم، وعلى القناعة بسهولة تغطية المؤامرات والمناورات على جماهير شعبنا، ونخبنا السياسية والفكرية والمهنية.

المهم أن هذا التحول قد حصل، وأن أكثر من جهة سياسية وثقافية لفتت الأنظار إليه، وكنا نحن ممن ألقى أنواراً ساطعة على مواقع الخلل منذ عام 1970. إلا أن كل ما فعلناه لم يمنع استمرار الدعم الرسمي والشعبي لقيادة المنظمة، ولم يمنع التعامل معها، على أنها القيادة الوطنية الشرعية للشعب الفلسطيني.

فما سر هذا التحول؟ وكيف حدث؟

إننا لا نستطيع أن نفهم هذه المسألة إلا إذا فهمنا ما يلي:

أولاً: أن الشعب الفلسطيني، ومعه الجماهير العربية، كان يرى أن فلسطين للعرب، وأن العدو الصهيوني محتلٌ غاصب، احتل فلسطين، وسيحتل أراضي عربيةً أخرى، كما فعل باحتلال سيناء وجنوب لبنان والجولان. لذلك، فإن جماهير الشعب كانت تريد، وما زالت، برنامج تحرير. وجاء ميثاق المنظمة ليغطي هذا الهدف.

لكنّ هذا الهدف لم يكن هدف كل الأنظمة العربية، ولا كان هدف كل القيادات الفلسطينية، وخاصةً في الهرم الأعلى.

ثانياً: أن الأنظمة كانت مختلفة، وكان بعضها ضد أي مقاومة، وبعضها ضد التحرير، باعتباره "هدفاً غير عملي"، ولكن نظام عبد الناصر، ومنذ ما بعد حرب حزيران، سنة 1967، كان يريد تقسيم المهمة إلى مهمتين:

الأولى: التحرير، وهي مؤجلة، لعدم القدرة عليها.

والثانية: إزالة آثار العدوان، أي الانسحاب من الأراضي التي احتلت، سنة 1967، وهي مهمة يجب أن تطرح، وأن يؤيد طرحها بقيام مقاومة، وبممارسة ضغوط سياسية عربية ودولية.

ولذلك أيدت مصر حركة المقاومة، في عهد عبد الناصر، وخاصة بعد حزيران، وشنت القوات المصرية حرب استنزاف على العدو الصهيوني، مع أن السلطة في مصر، كانت تطالب بتنفيذ القرار 242.

وكانت الأنظمة التي تخشى المقاومة كلياً، لا تريد للمقاومة الفلسطينية أن تبقى وتستمر، فعملت على إلحاقها وتفتيتها وإفسادها بطرقٍ مختلفة. أما الأنظمة التي كانت مع إزالة آثار العدوان، فإنها كانت تريد مقاومة مطواعة، لا تتعدى الحدود التي ترسم لها.

ولقد اختلفت مواقف الأنظمة من المقاومة ومن دورها. وكان كل نظام يريدها أن تكون "بعض أوراقه"، في سياساته الداخلية والخارجية.

لذلك، كان كلٌ يريد أن تكون قياداتها مطواعة، تستطيع توجيه قواعدها وقواتها وشعبها، حسب الخط المرسوم.

وضمن هذه المعادلات تسلم أحمد الشقيري رئاسة المنظمة سنة 1964، وضمن هذه المعادلات تسلم السيد ياسر عرفات (محمد عبد الرؤوف القدوة) رئاسة المنظمة، سنة 1968، وظل حتى الآن.

ولما كانت الأنظمة المعنية تعرف أن الرئيس يأتي، وقد يذهب، فقد كان ضرورياً أن يضرب الخلل البنية كلها، فيخترق اللجنة التنفيذية والمكاتب والمجلس الوطني والقوات، وهذا ما حصل.

فكانت البنية من طينة، والبرنامج (الميثاق) من طينةٍ أخرى. وإذا كان البرنامج برنامج تحرير، فإن البنية كانت بنية تسوية، في عهد الشقيري أو في عهد عرفات. ولم يكن للمؤسسات شأن، لتحمي البرنامج، أو لتعبر عن إرادة الشعب وخط المقاومة.

ورافقت عملية الكشف عن "خط التسوية" في المنظمة عملية أخرى، تتلخص في إبعاد خيرة المناضلين من القواعد والتنظيم والمنظمات الشعبية والقوات، وإغراقها بموظفين وسماسرة وتجار وعملاء، لا عمل لهم غير خدمة خط التسوية، ومحاربة خط الثورة والمقاومة.

وجاءت تصفيات 1978-1979، و1983-1984، لتخضع بنية المنظمة لسياسة الاستسلام، ولتجعل الميثاق معزولاً غريباً.

ولم تلبث الأحداث أن كشفت أن قيادة عرفات في المنظمة أكثر استعداداً من أي نظام عربي للتفريط بالقضية الفلسطينية، وأنها ليست أكبر من اتفاق أوسلو (غزة – أريحا).

2 – المراحل التي مرت بها المنظمة:

ولقد مرت المنظمة، منذ قيامها حتى الآن، بالمراحل الست التالية:

أولاً: مرحلة 1964-1968، وكان برنامجها الميثاق، وهدفها التحرير اسماً، ولكن هدف إنشائها لم يكن يتعدى إيجاد "مؤسسة" يتحد في إطارها الشعب الفلسطيني، وتتربع على قمة هرمها قيادة تستطيع أن تكيف النضال والنشاط الشعبي مع رغبات الأنظمة المسيطرة.

ولقد نجح توفير الأموال والدعم السياسي والأمني الذي قدمته الأنظمة للمنظمة في تحويلها إلى الإطار القيادي للشعب الفلسطيني.

ومن الواضح أن هدف الشعب كان غير هدف الأنظمة "المسالمة" والقيادات الفلسطينية المرتبطة بها. وفي هذه المرحلة بني جيش التحرير الفلسطيني والمكاتب والمؤسسات.

ثانياً: المرحلة الثانية 1968-1970، وقد ظل البرنامج الاسمي الميثاق، مع بعض التعديلات التي تبدو لفظية، وحدث تغيير، بدا جوهرياً، في القيادة، عندما انتقلت القيادة إلى ياسر عرفات الذي كان يلبس الكاكي ويحمل البندقية ويدعو إلى التحرير.

وحين أبلغ أحمد الشقيري الذين يثق بهم أنه استقال، لأن المطلوب منه لا يستطيع قبوله، وأن القادم بعده سيحقق المطلوب، لم يسمع أكثر المعنيين لما يقول، ولم يهتم بما طرحه أحد من الفصائل أو الشخصيات الوطنية، وكان أكثر العاملين في الساحة يعتبر التحول لمصلحة عرفات ثورياً.

وكان هدف هذه المرحلة تثبيت قيادة عرفات قيادةً للمنظمة، وإعدادها للدور الآتي.

ثالثاً: المرحلة الثالثة 1971-1973، وفي هذه المرحلة بدأ الحديث عن التسوية والسلطة الوطنية في الضفة وغزة، وإذا كان ذلك قد بدأ همساً في أيلول سنة 1970، فإنه تحول مع بداية 1971 إلى تصريحات علنية. واستمر الأمر كذلك.

ونستطيع أن نقول إن هذه المرحلة كانت مرحلة انتقالية، أي مرحلة الانتقال العلني من برنامج التحرير إلى برنامج التسوية.

وفي بدء عام 1973، طرحت الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين برنامج "الحل المرحلي"، بحماية بنادق قيادة عرفات، ليكون بداية لمرحلة جديدة.

لقد بدأت قيادة عرفات في المنظمة وقوى الحل المرحلي خطواتها العملية، نحو أوسلو وغزة-أريحا، وإن كان ذلك يُغطى بالحديث عن حق تقرير المصير والدولة المستقلة.

رابعاً: المرحلة الرابعة 1974-1978، وقد اتخذ الحديث عن "التسوية المرحلية" شكلين مترابطين:

الأول: تعبئة واسعة باتجاه الحل السلمي، وقيام الدولة المستقلة، وفرز قوى المقاومة على هذا الأساس، وإعادة بناء التحالفات بما يخدم هذه السياسة.

الثاني: العمل على "تقنين" (أو "قوننة") ذلك ضمن أطر المنظمة، وكان برنامج النقاط العشر الذي أقره المجلس الوطني سنة 1974 أول هذه الخطوات الرسمية.

وقد لمست النقاط العشر الموضوع عن طريق رفض القرار 242 لأنه يتعامل مع القضية الفلسطينية باعتبارها قضية لاجئين.

وأشرنا في المجلس إلى أن هذا الرفض يتضمن قبول ما ينص عليه القرار، وهو التفاوض والصلح والاعتراف والحدود الآمنة ووقف العمل المسلح، وضمان الحدود، وهو أخطر من اعتبار القضية الفلسطينية قضية لاجئين. ومثل هذا التعامل هو الذي يبقي القضية الفلسطينية قضية لاجئين.

ولقد نبهنا أعضاء المجلس إلى ذلك، وقلنا للحاضرين إن هذه السياسة ستقود إلى بلدية مقزّمة، كما هو مثبت في محاضر المجلس الوطني المسجلة، فغضب عرفات، ورد على ما طرحنا بقوله:

"بتقول إيه... بلدية..! هية "كرخانة"، وأنا عايزها".

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

ولم يثر ذلك مخاوف أحد. وعندما جرى التصويت على مشروع القرار، اقترع لمصلحته معظم الحاضرين، ومن يعارضونه، ولم يقترع ضده إلا خمسة، هم: عثمان أبو حاشية، والشاعر يوسف الخطيب، ود. سعيد حمود، عضو الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، وسعيد حمامي الذي عارضه لأنه عده "قراراً متطرفاً"، وكاتب هذه السطور.

وكانت هذه الخطوة بداية مسلسل التراجعات السرية والعلنية التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه الآن.

وفي هذه المرحلة جرى فرز القوى في المنظمة إلى قوى مع "الحل السياسي المرحلي"، كما سُمي، و"قوى متطرفة ضد السلام".

خامساً: المرحلة الخامسة (1974-1981)، وفي هذه المرحلة حصلت قيادة المنظمة، بتفويض عربي، على أنها الممثل الشرعي الوحيد. وكان الهدف من ذلك:

1 – تخويل قيادة عرفات بالتفاوض والاعتراف والصلح.

2 – التنازل عن السيادة القومية على فلسطين، وعن الواجب القومي في تحريرها.

3 – تلبية المطالب الصهيونية-الأمريكية بتفاوض كل طرف عربي عن نفسه، ومنع أي طرف عربي من التحدث باسم القضية.

وقد أدى إصدار هذا القرار إلى زيادة ثقة قيادة عرفات، بأنها ربحت الجولة الأولى من المعركة بفرض التخلي القومي عن فلسطين، بما فيه تنازل الأردن عن ربط الضفة الغربية به، وتنازل مصر عن ربط غزة بها، وبروز قيادة عرفات طرفاً عربياً، تعترف به الأنظمة العربية كلها ممثلاً شرعياً ووحيداً.

ولذلك، فإن قيادة عرفات، ومن أجل أن تلبي الشروط الصهيونية-الأمريكية الأخرى، واصلت معركة السيطرة على المنظمة وفصائلها، فدارت معارك سرية ومعلنة مباشرة وغير مباشرة، واتخذت عدة أساليب، من الهجمات المباشرة السياسية والعسكرية، إلى الضغوط السياسية والمالية، ومن استخدام الدول العربية، إلى استخدام الضغط الدولي.

وقد لعبت قيادة الاتحاد السوفياتي دوراً كبيراً في هذه المعركة.

وكان الهدف الرئيس يقوم على دعامتين:

الأولى: بناء "قوى تصفية" في المنظمة والفصائل، قادرة على أداء مهماتها.

الثانية: تفتيت جبهة الرفض، وتصفية القوى المصرة على مواصلة المقاومة.

ولقد اضطرت قيادة عرفات، في سبيل تحقيق ذلك، لاستخدام السلاح وكل الوسائل الأخرى، فبدأت عمليات الاغتيالات مع سنة 1974، وهاجمت قوات فتح جماعات من فتح سنة 1978 لأنها رفضت قبول قيادة عرفات وقف إطلاق النار ووضع قوات دولية في جنوب لبنان، وأعدم في 1978/6/19 القائدان أبو أحمد (علي سالم) وأبو عماد (محمود دعيبس) قائدا القتال في مخيم تل الزعتر اللذان رفضا مؤامرة تسليمه وخرجا قتالاً، وظلا ملتزمين بخط المقاومة. ثم بدأت هجمات واسعة على المواقع والمخيمات شملت مخيم البص ومخيمي البداوي ونهر البارد، حيث استخدمت المدفعية الثقيلة.

وقادت الضغوط السياسية والعسكرية والمالية التي شاركت بها الأنظمة العربية، كلٌ بطريقته، إلى انفراط عقد جبهة الرفض، وعودة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، سنة 1979، إلى المنظمة، وبدء تعاطيها مع "الحل المرحلي".

سادساً: المرحلة السادسة 1982-1989، وفي هذه المرحلة جاء الجلاء من لبنان، سنة 1982، ليبدأ المرحلة الأخيرة، فمن جهة، حقق اجتياح لبنان، سنة 1982، تدمير البنية السياسية والعسكرية للمنظمة وفصائلها، وفصل ما بينها وبين الجمهور،

وأدخل بقايا قواتها وموظفيها مرحلة التيه، ومن جهة أخرى، أدخلها اتفاق الخروج من بيروت مرحلة "اللعبة الدولية". فقادها هذا كله على طريق أوسلو.

3 – وضع المنظمة خلال هذه المراحل:

ولكن كيف كانت المنظمة وفصائلها، خلال هذه المراحل كلها، من حيث العلاقات بالشعب، والسهر على مصالحه، والتعبير عن إرادته؟ وكيف كانت علاقات القيادة بمراتبها المختلفة، والفصائل بعضها ببعض؟

إن المنظمة، خلال ذلك كله، لم تكن منظمة شعبية أو ديموقراطية.

سيقول قائل: كيف؟ وجماهير الشعب تؤيدها، وتقاتل تحت لوائها؟

والحقيقة أن أوسع جماهير الشعب كانت مع المنظمة ومع فصائلها المقاتلة. ولكن الجماهير كانت مع حلمها، ومع أن تكون المنظمة ممثلة له، وكانت الجماهير تعطيها الولاء، وتلتزم بالتضحيات، على أمل أن يؤدي ذلك إلى قيام المؤسسة الجامعة المعبرة عن الأهداف الكبرى. وهو ما لم تستطع المنظمة أن تكونه، بأي حالٍ من الأحوال، للأسباب التالية:

أولاً: لأن أهداف "القيادة الفعلية"، أي قيادة عرفات، لم تكن أهداف الجماهير.

فالقيادة الفعلية تمثل سياسة الأنظمة المستسلمة، القائمة على أساس "عدم الخروج من المولد بلا حمص"، كما يقول عرفات دائماً، والشعب يريد وطنه.

والقيادة التي دعت إلى حمل السلاح، كانت "تزعبر" بالسلاح، لأنها تسعى إلى حل "الحد الأدنى"، ولم تكن تبني قوات قادرة، وتُعِد خططاً نافعة، وتعمل للتحرير.

ولذلك، فقد ضربت كل قوات المنظمة، وشتت تشتيتاً، حتى لا تكون قوات مؤثرة، وحتى لا تكون أساس بناء جيش فعال يمنع تحقيق المخطط المرسوم.

ودُمرت "قوات العاصفة" بالأساليب والسياسات التي اتبعت، ومنذ 1971 خاصةً.

والمؤسسات التي بنيت كانت مؤسسات تسيطر عليها روح التوظيف، ولم تكن مؤسسات شعبية تحترم إرادة الشعب، وتعمل للدفاع عن حقوقه، حتى لو كان فيها مناضلون.

ثانياً: لأن عقلية القيادات المؤثرة كانت تحتقر الشعب وحقوق الشعب، وكانت تعمل لإذلال المناضلين، وإخضاع الشعب، بدلاً من أن تعمل لزيادة ثقة الشعب بنفسه.

وكان عرفات يرى أن "الشعب الفلسطيني ليس كالشعب الصيني أو الفيتنامي، فالشعب الصيني أو الفيتنامي قطعان من الأغنام، أما الشعب الفلسطيني ففيه ثلاثة ملايين رأس"، وكان الحديث سنة 1969، و"إذا لم نكسر الرؤوس، فإننا لا نستطيع أن نقود"، كما قال مرة بحضوري في مكتب الإعلام، سنة 1969.

إن هذه النظرة كانت تتحكم في كل عمل المنظمة، وهي التي سيطرت على عمل فصائلها، ولذلك جرى التشديد على ضرورة إذلال المناضلين وإخضاع الشعب، وتمكين "الزعران" والأتباع من احتلال المواقع القيادية.

وضمن هذا الخط تمتع القادة وأشباه القادة والمحظوظون بالامتيازات، وأهملت مصالح الشعب وضربت حقوقه.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

وفي عهد سيطرة المنظمة جرى الاستهتار بالثقافة، وتدنى مستوى التعليم في كل المدارس التي خضعت لسيطرة المنظمة وفصائلها تدنياً فاحشاً، وانتشرت الموبقات في مواقع لم تدخلها من قبل، وعمت الانتهازية وروح العبث بالقيم، وكل ما هو مضاد للمقاومة والشعب، كما يعرف كل قادة المنظمة وفصائلها وأعضائها، وجماهير الشعب.

وبالتالي، فإن المنظمة، التي كانت تحظى بتأييد الشعب، عملت كل ما هو ضد مصلحة الشعب، من تدمير قواه، إلى تدمير معنوياته وبناه، ومن ضرب قياداته المدافعة عن مصالحه وحقوقه، إلى إبراز قيادات لا تمثله، ولا تمثل مصالحه وحقوقه بأي شكل من الأشكال.

والذين تنازلوا عن حقوق الشعب ومصالحه باتفاق أوسلو كانوا قد تنازلوا عن حقوقه ومصالحه من قبل، حين صاروا أدوات قمع له، وعقدوا الصفقات باسمه مع الأجهزة الأمنية العربية والدولية، واستغنوا من جوعه وعريه وآلامه، وفرضوا عليه قيادات من أضعف رجاله، وأبعدهم عن الرجولة والشجاعة وأقلهم كفاية.

ومن هنا، فإن تأييد الشعب للمنظمة ولسياسة التحرير، والتمسك بالوحدة الوطنية، والبحث عن إطار جامع ديموقراطي، استخدم كله لتحقيق أهداف مضادة.

والمنظمة هذه، لأنها لم تكن شعبية، من حيث السياسة، كان مستحيلاً أن تكون ديموقراطية، ورغم الحديث عن غابة البنادق، وعن الديموقراطية الفلسطينية، فإن الواقع المكشوف كان يمثل وضعاً مختلفاً، في كل الميادين.

فعلى صعيد السلطة، كانت المنظمة وفصائلها، إلا باستثناءات فردية، تمارس سياسة قمع واسعة، لا يردعها رادع. وكانت مكاتب الأمن ومراكز الكفاح المسلح في المدن والمخيمات مواقع بطش تعسفية. وكان السجن بلا سبب والتعذيب الوحشي، والقتل التعسفي، مظاهر عادية.

وعلى صعيد المؤسسات، فإنها لم تكن مؤسسات، وكانت تكوّن بحسب الحاجات السرية، وتدار بطريقة ذاتية. ولذلك لم يكن المجلس الوطني مجلساً وطنياً، لا لخلو عضويته من الوطنيين، ففيه عددٌ منهم، ولكن لأن رئيس المنظمة يزيد عدده بانتظام، بمن لا يخرجون عن خطه، ويدعوه بالطريقة التي يشاء، ويديره كما يرغب. ولذلك كان المجلس يخضع للسياسات التي يرسمها الرئيس، ويغطي خطواته، ويفتح بقراراته للرئيس طريق تقدمه على خط غزة – أريحا.

ولم يقف المجلس وقفة واحدة لمنع مسلسل ما يجري. وحين حاول أعضاؤه وقف مشروع النقاط العشر، سنة 1974، استدعيت لهم "الضوابط" العربية، فخضعوا.

واللجنة التنفيذية كانت دائماً مجرد ستار لاتخاذ القرارات، ولم تكن هيئة فعالة. وكان يختار لها عدداً من "الأزلام" الذين يُسكتون الآخرين، ويسهلون للرئيس الحصول على القرارات التي يريد بنصاب أو بدون نصاب.

ولذلك كله، لم تلعب مؤسسات المنظمة وفصائلها الدور الذي طمح إليه الشعب، بل لعبت الدور الذي أرادته القوى المعادية.

4 – كيف سيكون مستقبل المنظمة؟

فكيف سيكون مستقبل المنظمة، بعد ذلك كله؟

إن المنظمة التي طمح إليها شعبنا، وكل القوى القومية العربية، ليست موجودة الآن.

فعلى مستوى البرنامج، تنازلت قيادة عرفات عن برنامج المنظمة، لمصلحة برنامج الحكم الذاتي والانخراط بالمشروع الصهيوني.

وعلى صعيد البنية، تخلت قيادة عرفات عن البنية النضالية التي كانت مطمح كل المناضلين، وإن لم تتحقق، لمصلحة بنية موظفين تخدم برنامج غزة – أريحا.

وعلى صعيد الدور، تخلت قيادة عرفات عن الدور النضالي التحرري لمصلحة دور استسلامي، دور الشرطة القمعية المضادة للمقاومة.

فلماذا تبقى المنظمة بعد ذلك كله؟

ورغم ذلك، فإن بقاء المنظمة أو زوالها سيكون نتيجة ما يلي:

1 – استمرار المقاومة، فما دام هنالك قرار باستمرار المقاومة، وعمل لوحدة الشعب في النضال، فإن هذا سيتطلب إطاراً جبهوياً، وقد يكون هذا الإطار م. ت. ف، بعد أن تخضع في البرنامج والبنية لمتطلبات التحرير والمرحلة الجديدة، وقد يكون إطاراً آخر، يفرزه النضال الجديد، بعد غزة – أريحا.

وهناك قوى فلسطينية، كفتح-الانتفاضة، والشعبية-القيادة العامة، تطالب باستعادة المنظمة على أساس برنامجها وخطها.

وهناك قوى أخرى، كالشعبية والديموقراطية، تطالب باستعادة المنظمة على أساس خط حق تقرير المصير والدولة المستقلة.

وفي رأينا أن استعادة المنظمة الآن غير ممكنة، لما حدث في بنيتها وبرنامجها من تشويهات بنيوية، ولوجود "ورثة" يدعون ملكيتها، تدعمهم قوى عربية ودولية. ولأن استعادتها تقتضي "تحريرها" من كل التراكمات التي ملأتها، وهي كبيرة وكثيرة، حتى أننا سوف لا نجد من المنظمة شيئاً بعد عملية "التحرير".

وستحاول قيادة عرفات، ومن يرث هذه القيادة، أن تستثمر المنظمة حتى آخر لحظة لتغطية تنازلاتها، وللاستفادة من "تراثها" ولمنع الآخرين من الاستفادة.

ولذلك فإن قيادة عرفات ستحاول داخل الأرض المحتلة أن تجعل المنظمة غطاءها، وستحاول خارج الأرض المحتلة أن تُبقي بقايا المنظمة للإمساك بتلابيب الفلسطينيين، ومنعهم من أن يدعموا أي اتجاه آخر.

وسيكون موقف الأنظمة العربية متعدداً، فمنها من يرى ضرورة بقاء المنظمة، حتى لا يخرج طرف آخر "يثوّر" الجماهير العربية، ومنها الفلسطينيون، ومنها من يرى بقاءها عنوان المرحلة الماضية، ونذير بوجود سياسي فلسطيني، ولذلك يرى ضرورة زوالها، أو بقائها هراوة لقمع الفلسطينيين، ومنها من يلوح باستخدامها ضد قيادة عرفات، وضد برنامج الحكم الذاتي.

وسيشدد العدو الصهيوني، بالنسبة للموقف من المنظمة وبقائها على أمرين:

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

1 – التخلي عن كل ما له علاقة بالمرحلة الماضية، سواء كان ذلك في ميدان البرنامج أو المقاومة (بالفعل، تم تعديل الميثاق الوطني الفلسطيني وشطب بنود كثيرة منه على مرحلتين عامي 1996 و1998 – إ. ع).

2 – الالتزام بالدور الجديد، أي دور الشرطي الذي يقمع المقاومة في الداخل، وينخرط في البرنامج الصهيوني.

وسيرفض العدو الصهيوني وجود منظمة تتكلم، ولو مجرد كلام، باسم فلسطين والفلسطينيين، في الضفة الغربية وغزة، والأراضي المحتلة سنة 1948، والشتات، لأن وجود مثل هذه المنظمة يؤكد وحدة الأرض والشعب، وينفي أساس قيام الكيان الصهيوني.

ولذلك كله، فإن المنظمة، في كل الأحوال، لن تبقى كما كانت قبل اتفاق أوسلو، ولن تعود كما كانت سنة 1964، أو 1974، وسيفرز استمرار النضال إطاراً جديداً جبهوياً يمثل حقائق المرحلة الجديدة، وقد يسمى م. ت. ف. أو أي اسم آخر.

المهم أن تبقى المقاومة، وأن تستمر، وأن تحقق وحدة الشعب حولها، ولا تهم بعد ذلك أسماء المنظمات وأشكال المؤسسات، وإن كان علينا أن نمنع المتلاعبين أن يعبثوا بتراث شعبنا.

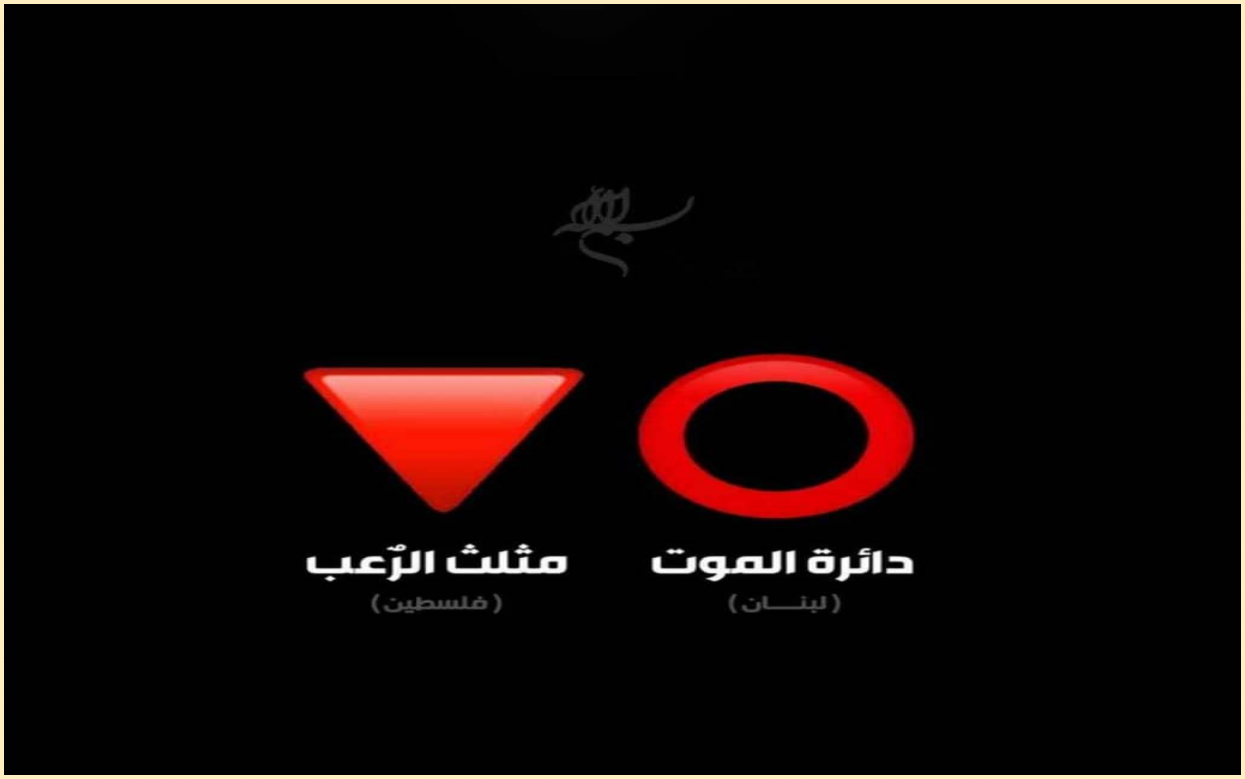

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار2024

الصفحة الثقافية: القضية المشوهة في فيلم "لا بدّ أنها الجنة"

طالب جميل

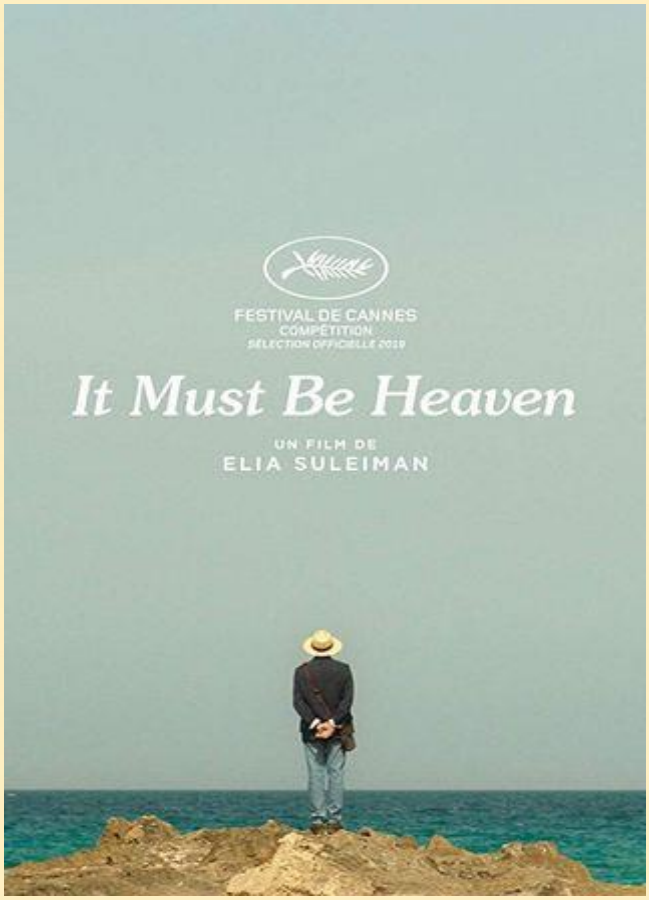

فيلم "لا بدّ أنها الجنة – It Must Be Heaven"، وفي ترجمة أخرى على لسان المخرج "إن شئت كما في السماء"، للمخرج الفلسطيني المولود في مدينة الناصرة إيليا سليمان، أنتج في العام 2019 بتمويل فرنسي كندي، وقد حاز على جائزة الاتحاد الدولي للنقاد لأفضل فيلم في مهرجان كان بالإضافة إلى تنويه خاص من لجنة التحكيم.

الفيلم عبارة عن مجموعة مشاهد ساخرة غير مترابطة بحبكة معينة فيبدو المشاهد منذ المشهد الأول أمام عمل فكاهي، حيث يظهر قسيس في كنيسة مع أصوات ترانيم وخلفه جمع من المصلين يتجهون نحو باب الكنيسة المغلق. يحاول القس فتحه لكن هناك صوت من الداخل لرجل ثمل يرفض فتح الباب فيتخلى القس عن دوره الروحاني ليقوم بكسر الشباك ويدخل من خلاله لفتح الباب للمصلين.

يظهر إيليا سليمان في الفيلم بشخصيته الحقيقية –كمخرج سينمائي- لكنه صامت كالعادة كما في أفلامه السابقة، وكفلسطيني مهزوم يكتفي بمراقبة الأحداث المرتبطة بروتين حياته اليومي بدون أي إحساس بالتفاعل معها، فيشاهد جاره من الشرفة وهو يسرق من شجرة الليمون بحجة أنه قرع باب البيت ولم يرد عليه أحد. ثم نذهب لمشهد أكثر عبثية عندما يراقب سليمان شقيقين يجلسان في حانة ويوجهان غضبهما تجاه النادل الذي أخبرهما أن حموضة الطعام الذي تناولته أختهما بسبب مرقة النبيذ الموجودة بطبق الدجاج، لكنهما يسامحانه عندما يعطيهما أكواباً إضافية من الويسكي على حسابه.

تتوالى المشاهد العبثية غير المترابطة بقصة أو حكاية واحدة، فيظهر الجار العجوز الذي يحدثه عن مغامراته في الصيد، ولاحقاً مشهد لشاب يشرب الجعة في الشارع ثم يتبول في المكان العام ويكسر زجاجة الجعة ويغادر بمراقبة رجال الشرطة، ويعود العجوز مرة أخرى ليتبادل الشتائم مع ابنه على شرفة المنزل، أما إيليا سليمان فيستمتع بشرب العرق على أنغام

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

صوت صباح فخري، وخلال عودته من المزرعة تسير بجانبه سيارة شرطة فيها فتاة فلسطينية أسيرة مغمضة العينين، فيكتفي بالتأمل والمراقبة من دون أي ردة فعل.

يغادر المخرج إلى فرنسا باحثاً عن تمويل لفيلمه الذي ينوي تقديمه عن القضية الفلسطينية، يتخلل رحلته هناك بعض المشاهد التي تجمع بين الكوميديا والغرائبية، فيظهر رجال إسعاف فرنسيون ينزلون لمساعدة متسول ثمل ينام على الرصيف، ورجل آسيوي مثير للريبة، وعمال نظافة يلهون في الشارع العام يركلون زجاجات الكولا الفارغة بأقدامهم، ومنظر الدبابات في شوارع العاصمة الفرنسية وحضور للشرطة الفرنسية أمام المقهى، كما يظهر وهو يراقب عرضاً للأزياء والموضة من بعيد، ويمسك بعصفور الدوري الذي يرافقه بغرفته قبل أن يأمره بالمغادرة بعد أن أزعجه، وتنتهي رحلته هناك بالفشل في الحصول على تمويل للفيلم لأنه لا يبدو فلسطينياً على حد تعبير الجهة الممولة!!

يتوجه بعدها إلى نيويورك وهناك نكون أمام مشاهد أخرى ضمن نفس السياق العبثي، فسائق التاكسي الأمريكي الأسود - الذي لا يعرف عن فلسطين سوى "ياسر عرفات"- يتصل بزوجته ليخبرها بسعادة كبيرة انه لأول مرة يشاهد كائن فلسطيني بعد أن أخبره سليمان بأنه فلسطيني وهي الكلمة الوحيدة التي نطق بها أثناء الفيلم، وفي أحد أماكن التسوق يشاهد جميع الناس هناك من الباعة والزبائن والمارة وركاب السيارات يحملون أسلحة، فيما تطارد الشرطة فتاة بجناحي ملاك رسم على جسدها علم فلسطين ويغلب على أداء الشرطة في مطاردتها حركات مسرحية لكن بعد القبض عليها تختفي ولا يبقى منها غير الجناحين.

تستمر مشاهد السخرية في نيويورك بمشهد الحديث مع منجّم أمريكي عن حلم "الدولة الفلسطينية"، يليه مشهد لتجمع جماهيري بعنوان "الملتقى العربي الأمريكي العاشر من أجل فلسطين"، وفي مكتب المنتج الأمريكي يتم تقديم سليمان صانع الأفلام الكوميدي على أنه يريد صنع فيلم عن "السلام في الشرق الأوسط"، فيتعرض للسخرية من الفتاة من دون أي وعد بالتمويل، وتكتمل دائرة السخرية بمشهد في حانة لرجل لبناني يخبره بأن الشعب الفلسطيني هو الشعب الوحيد في العالم الذي يشرب ليتذكر وليس لينسى!

يعود سليمان إلى الناصرة بعد أن فشل في الحصول على التمويل اللازم وينتهي الفيلم بمشهد هزلي في ديسكو لشباب يتراقصون على أنغام أغنية "عربي أنا اخشيني... الويل إذا أحببتني.."!!

لقد تم تقديم هذا العمل السينمائي الذي هو أقرب لإسكتشات سينمائية صامتة عبر سلسلة مشاهد تفتقد لحكاية أو لبطل أو حتى لبطولة جماعية، غلب عليها الطابع الكوميدي وحملت روح سريالية عبر هامش واسع من الخيال لطرح قضية الهوية بالدرجة الأولى لدى الإنسان الفلسطيني الذي يظهر بصورة المأزوم التائه الفاقد للبوصلة الممتلئ بالثقافة الليبرالية التي تجعل هدفه في الحياة البحث عن خلاصه الفردي بعيداً عن الجغرافيا لأنه وجد ضمن واقع يفرض عليه أن يختار بين السيئ والأسوأ.

وكما أن هناك تقديماً ممسوخاً للقضية الفلسطينية في زمن العولمة بأسلوب ساخر وفكاهي، فهناك هروب واضح من تسمية الأشياء بمسمياتها، ولا يعني إهداء الفيلم لفلسطين بأن هنالك شيئاً يدعو للفخر فيه، فهناك فرق شاسع ومساحة كبيرة بين الاستعراض والحقيقة، وإن أي إنسان فلسطيني أو عربي أو بدون جنسية يريد الحديث عن القضية وجب عليه قول الحقيقة بوضوح وذلك أضعف الإيمان، أما الاختباء وراء أفكار غامضة وفضفاضة يقبلها العدو والصديق ولا تجلب أي منع أو مضايقات فهو أمر يمكن قبوله عندما لا يتعلق الأمر بقضية كبرى مثل قضيتنا الفلسطينية، كذلك فإنه من المعيب تسخيف بعض المفاهيم والمبادئ التي هي الرافعة الأساسية لنهضة أمتنا العربية وتحررها مثل مفهوم العروبة عبر المشهد الأخير في الفيلم والذي يمكن اعتباره مشهداً بذيئاً سياسياً وأخلاقياً من خلال ظهور شباب يتراقصون في ديسكو على أنغام أغنية "عربي أنا اخشيني" أراد من خلاله المخرج إيصال رسالة واقعية بأننا وصلنا إلى هذه الحال علماً أنه لم يقدم شيئاً خلال أحداث الفيلم يوحي بأنه يريد أن يصبح الحال العربي أفضل.

يمكن تصنيف الفيلم على أنه سياسي فكاهي حاول من خلاله المخرج صناعة مضمون له علاقة بغربته داخل وخارج بلده حتى أن اسم الفيلم –الذي لم يرغب إيليا سليمان في وضع عنوان عربي له لعدم اطمئنانه إلى عناوين عربية تُوضع لفيلمه- يوحي بأن هناك جنة بوهيمية لكنها مجهولة لم توجد لا في فرنسا ولا في أمريكا ولا في فلسطين ودعوة لعدم أخذ فكرة "الوطن الجنة" على محمل الجد.

لا يريد سليمان أن يحاكم أحداً، وهذا واضح في العمل بسبب المبالغة في الرمزية التي تساهم بنقل الفيلم إلى المنصات العالمية وتقديره بشكل أكبر بسبب تعدد التأويلات لمبتغاه، وبالتالي خلق حالة غير مفهومة من التناقض والالتباس والسلبية نتيجة حالة اللاموقف الواضحة من الأشياء، فكيف لفيلم عن فلسطين لا يظهر فيه المجرم كمجرم ولا يظهر فيه صاحب الحق كصامد ولا يظهر المؤمن بالمقاومة كمناضل.

في الواقع أصبح واضحاً للعيان أن هناك أزمة كبيرة فيما يسمى بالأفلام الفلسطينية التي تنتج في الأراضي المحتلة عام 1948 أو في أراضي الضفة الغربية والتي يكون الهدف منها تقديم عمل له علاقة بالقضية الفلسطينية، فعدا عن كارثة التمويل الأجنبي، وهي السمة المشتركة في الغالبية العظمى من هذه الأفلام، فهناك حالة بؤس واستجداء وتشوهات خطيرة تحكم الفكرة التي تقدم فيها هذه الأعمال. والأمر بالتأكيد ليس بحسن نية، فالجهات الممولة لا تقبل بأن يقدم الفيلم قضية فلسطين بشكلها الحقيقي، ولا أن يحمل أي توجهات فيها دعم لفكرة المقاومة أو إظهار الجانب الإجرامي الحقيقي للكيان المحتل، وفي جميع الأحوال، لا يمكن لمن يضع رقبته بيد الممول الأجنبي، ولمن يعتمد على السخرية والتهريج، ولمن يعاني من هوس الجوائز، أن يقدم فيلماً محترماً يليق بحجم وأهمية القضية الفلسطينية.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

قصيدة العدد: البكاء بين يدي صنعاء / عبد العزيز المقالح

للحبِّ فوقَ رمالِها طللُ ... منْ حولِهِ نبكي، ونحتفلُ
نقشْتُهُ كَفُّ الشوقِ في دَمِنا ... وطوتْهُ في أعماقِنا المقلُ
هوَ حُلْمُنا الباقي، ومعبدُنا ... وصلاتُنـا، والحبُّ والغزلُ
منْ أجْلِها تصفو مودَّتُنا ... ولِحُبِّـها نشقى، ونقتتلُ
شابتْ مآسينا، وفرحتُنا ... وتمزَّقَتْ في دربِها الدُّولُ
وشبابُها الرَّيّانُ ما برحَتْ ... أزهارُهُ تندى، وتكتملُ
صنعاءُ يا أنشودةً عبقَتْ ... وأجادَ في إنشادِها الأزلُ
إنْ أبعدتْني عنكِ عاصفةٌ ... وتفرَّقَتْ ما بينَنا السُّبُلُ
فأنا على حُبّي، وفي خجلٍ ... روحي إلى عينيكِ تبتهلُ
ألقاكِ منتصراً ومنكسراً ... وعلى جناحِ الشعرِ أرتحلُ
يجتاحُني شوقٌ، ويسحقُني ... شوقٌ، وفي التَّذْكـارِ أشتعلُ
ما نجمةٌ في الأفْقِ عابرةٌ ... إلاّ هتفتُ بها: متى نصلُ؟

ومتى على الكفَّينِ راحمةً ... هذا الغريبَ الدّارِ ينتقلُ
(نُقُمٌ) تُلَوِّحُ لي منائرُهُ ... عَبْرَ البحارِ، وتومئُ الشُّعَلُ
إني، إلى صنعـاءَ، يحملُني ... وجهُ النهارِ، وترحلُ الأُصُلُ
وأعودُ طفلاً كلَّما ذُكِرَتْ ... ويغيبُ وَسْطَ حريقيَ الرَّجُلُ
فمتى تظـلّلُـني مـآذنُهـا، ... ويضـيءُ منْ أحضانِها الجبلُ؟
لم يبقَ في الأيّامِ منْ سعةٍ ... حانَ الرَّحيلُ، ونوَّرَ الأجلُ
أأموتُ يا صنعايَ مغترباً ... لا الدَّمعُ يدنيني، ولا القُبَلُ؟
أوراقُ أيّـامـي، أبعثـرُهـا ... وأعيشُ.. لا يأسٌ ولا أملُ
يا أمَّنا جاعتْ مواسِمُنا ... واستبطأَتْ أمطـارَها اليمـنُ
أكلَ الذُّبابُ جنينَ فرحتِها ... وسَطا على أشبالِها الوهنُ
كانتْ تظنُّ الصيفَ قادمةً ... أمطارُهُ، والخِصْبُ، واللَّبَنُ
لكنّها وا هَوْلَ ما شَهِدَتْ! ... لا الخيلُ تعصمُها، ولا القُنَنُ
غرقَتْ بِوَحْلِ العمرِ، وانطفأَتْ ... في ليلِها الشُّطْآنُ، والسُّفُنُ
واستسلمَتْ للجدبِ لا (كَرِبٌ) ... يروي مواسِمَـها، ولا (يزنُ)
كانتْ تخافُ الموتَ منْ (حسنٍ) ... فأماتَها منْ خوفِها (حسنُ)
وتمرَّدَتْ ليلاً على وثنٍ ... فاغتالَها في فَجْرِها وثنُ
أبكي على أيّامِنا اندثـرَتْ ... أشواقُها، والحُلْمُ، والمدُنُ
ويقـولُ لي صحبي: كفى حَزَناً ... ماذا يفيدُ الدمعُ والحَزَنُ؟
أألامُ يا أمّاهُ إنْ يبسَتْ ... عيني، وأثمرَ حولَها الشجنُ؟
أبكي شباباً جَلَّ مصرعُهم ... في ليلةٍ وضّاحةٍ دفنوا
رحلوا بلا زادٍ، بلا كفنٍ ... أجفانُنا وقلوبُنا الكفنُ
سأظلُّ أبكيهم، ويغسلُهم ... عَبْرَ التغرُّبِ دمعيَ الهتنُ
حتى تَضِجَّ الأرضُ ثائرةً ... ويصيحَ منْ أعماقِها الوطنُ
لَبَّيْكِ يا (صنعاءُ) نحنُ هنا ... لا الموتُ يدركُنـا، ولا الزمنُ
فُرْسانُ عصرِ الشمسِ ما بَرِحَتْ ... رايـاتُهـم تدنـو، وتقترنُ
أرأيتِهم؟ في الأرضِ منْ دَمِهم ... عَبَقٌ، وفي أجفانِها وَسَنُ
وسماسرُ البترولِ تصلبُهم ... أحلامُنا الجوعى، وتمتهنُ
خانوا فما ربحتْ تجارتُهم ... ومشتْ على أشلائِهم (عَدَنُ)
للغادرينَ النارُ تحصدُهم ... ولكِ الخلودُ الخِصْبُ يا يَمَنُ.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 92
01 آذار 2024

ويحدث أن تقرع الحرب طبولها، فتتكشف معادن الرجال، وفي أقسى اللحظات، يسمو العزيز في عزته ويغرق الذليل في وحل ذلته. وقد تبعد المسافات أو تدنو لكنها قلوب الأعزاء، موصولة أبداً، ومع كل يوم آخر في هذه الحرب، تكتب رسائل الحب برشقة من صواريخ، تبدأ في صنعاء ولا تنتهي في غزة، رسائل تدخل قلب كل عربي حر فتغمره بالعز والشموخ، تلك هي صنعاء، تعيد تعريف الأخوة فلا تخطئ، وتصل الأهل بالأهل فتبدع، وتفتح ذراعيها لنا لنبكي دموعاً من فرط عشق وفخر هذه المرة، لا من فرط حزن أو هوان، ألا حييت صنعاء الجميلة، ودمت لنا مهد العروبة!

رسم العدد: في كل الفصول مقاومة

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي